(باطيو بينطو (رواية

عبد اللطيف الإدريسي

أرى كلّنا يبغي حريصا عليها
الحياةَ لنفسه مُستهاما بها صبّا
فحُبُّ الجبانِ وحُبُّ الشجاعِ
النفسَ أوردَه النفسَ أوردهُ
التُّقى الحرْبا
ويختلفُ الرزقانِ إلى أن يُرى
والفعلُ واحِدٌ إحسانُ هذا لِذا
ذَنْبا
المتنبي

أول حياته يجمع بين الضحك أنا السيمو ولد السالك المفقوص. أبي السالك، عاش
غير أوزان ولا قواف، ونقلة والبكاء والجد والهزل، كانت فيه نبتة الشعراء من
رجولته. قاض يحكم عادلا الفلاسفة من دون حكمة، ومرح الصبيان وهو في عزّ
الحياة، يدافع عن المقهورين بين الناس ضامنا حق الضعيف المهزوم في محكمة
كل مساعداته هذه كانت مثله بدون مقابل، لا يطلب لا جاه ولا عزة. لكن
وبالخصوص أنا أبيها جدّي صورية. لم تكن أناه منتفخة مثل أناي وأنا أمّي،
.الحاج الكبير التهامي بن رحّال وحرمه

المساعدة من أحد ولا يعوّل كان أبي من النوع الذي لا يشتكي لأحد ولا يطلب يد
كان غريبا بين أهل الحومة، على أحد. أعترف أمامكم معرّيا عن أناي أن أبي
ولكن رغم ذلك كان أطفال .يقول كلاما ويقوم بأفعال يستهجنها جلّ سكانها
والكلاب، دائما مرحبة بقدومه، الحومة جميعا يحبّونه، كما كانت تحبّه القطط
كما كانت تحبه كلّ النساء، إذا مواء من هنا أو تحريك زنطيط (ذيل) من هناك،
.ما استثنينا أمّي وأمّها وأخت أمّها

اختلطت فيه المحاسن ومع مرور الزمان اللعين ترسبت في أبي كل الأضداد،
نخرته حرقة الحياة ...بالمساوئ والفضائل بالرذائل باختلاف الناس وأهوائهم
حومته، وظلم أهل وبغضها، كم كان ينخز أمعاءه إلى حد المغص ظلمها لأهل
التي بالإضافة إلى حومته لأنفسهم. مات أبي مغتاظا، مات حانقا على هذه الحياة
القهر، أي شيء، لم أنها لم تعط أهل حومته، بنات وأولادا ورجالا ونساء غلبهم
وجههم الشاحب وتحكّ تعرهم أي اعتبار، حتى وأنها لكي تذلل آخر نقطة دم في
لهم سوى الخسيس أنفهم حتى النخاع، أخذت منهم أعز شيء: الكرامة. لم تترك
زوجته وأبوها :البشع الذميم المدحور. مات أبي غضبان من عشيرته الأقربين
الكبيرة بنت السي جدّي الحاج الكبير التهامي بن رحّال، وزوجته لالا الحاجة
والحكام... على سبيل المعطي وأختها، وكذلك من كلّ الأعيان والشرفاء والأولياء
.المثال لا على سبيل الحصر

كان يحبني مثلما يحبّ مُومّو أنا السيمو ابنه، أشهد أن أبي السالك ولد المفقوص
لكني كنت ابن أمّي إلى حين، عينيه (البؤبؤ للأجانب)، وأنا كذلك كنت أحبّه،
بدأنا حياة سقيمة مملوءة بكل .وكانت أمي بنت جدّي، وكان جدّي زوج جدّتي
.بأنفسكم أنواع القروح والسقام، وسوف تعاينون ذلك

كانتا فطريتين، لم يسعده الحظ أن شاعرية أبي وفلسفته التي حدثكم عنها منذ قليل
أستطع، وحالتي تلك، أن آخذهما منه يرسخها فيّ ويثبتها في ذهني، كما أنني لم
تختلف تماما عن جينات فطرتي، لا وراثيا ولا بالمأثور، لأن جينات فطرته
لكم كثيرا في سيرتي أثناء أعترف لكم، وسوف تعاينون بأنفسكم أنني سأعترف
دخلني الهيام والتوله، عندما سردها، أنني لم أستوعب حالته هذه إلا بعدما
العودة إلى الوراء؟ صفعتني الفطنة قبيل رحيلي بمدة قصيرة. فكيف

أبي الشاعري والفلسفي إلا إن إقراري أمامكم منذ البداية بعدم إدراكي مشروع
لكي لا تظنوا أنني أنا السيمو مؤخرا واعترافي كذلك أن هذا لم يعد مفيدا، كان
البحر، يجب أن تعلموا أنني أحدثكم ولد السالك المفقوص سأبيع لكم السمك في
لأن سيرتي قد انتهت منذ مدّة، وأن الآن من منبر لا ترونه وبصوت لا يسمع،

الوجود، ويجعلها تحيى من جديد، رغما عني هناك أحدا يريد أن يعيدها إلى حيّز
إن هذا المتطفل على بدء شأني ونهاية وبدون مشاورتي، بل والأكثر من ذلك
إجباريين. فأنا إن صح التعبير شخصية سيرتي جعل مشاركتي ووجودي بينكم
ما كنت أرضى ذلك لو كنت استُشرت، مرغمة وملزمة بالمشاركة. مرغمة لأنني
حقي أن أدافع عن نفسي؟ هذا لا وملزمة حتى أعرف ما سيقال عنّي. أليس من
لي الحق في الدفاع عن نفسي. يعني أنه بحكم أنني لم أعد حاضرا بينكم ليس
لي ضمير، كما أحذركم أنني إنني باعترافاتي هذه أكون صافي الضمير، إن كان
فعلا، أو ستحصل، أو قد لست مسؤولا عن ما ستقرؤونه من حوادث قد حصلت
أثناء السرد هي تحصل أو قد لا تحصل... إن التناقضات التي ستتجلى لكم
منها تناقضات تناقضات طبيعية، غير مخططة مسبقا ولا مبرمجة منذ زمان،
التناقضات أنني سأقول فطرية غريزية وأخرى اندفاعية لا إرادية. ومن بين هذه
أكون أنا قائله.. كلاما كثيرا لا يناسبني ولا يناسب شخصيتي، ويستحيل أن
المحال بمكان أن والسبب أنه في الفترة التي وقعت فيها هذه الأحداث كان من
.أفهم الذي يصير ويجري

تفهمون ما أريد قصده. حدّث أراكم وقد اختلط عليكم الحابل بالنابل، وكأنكم لا
المرحلة من قراءتكم، تقفون ولا حرج، هذا أمر عادي، لأنكم الآن في هذه
بدأت قصّتي.. لكني أوأكد لكم بالضبط على أطلال سيرتي في بداية شأنها، عندما
يخصني فقد أكلته متأخرا، وعندما أنكم ستأكلون لاحقا حَبّ الفهامة مثلي، ففيما
فسوف تأكلونه وستتجلى لكم الأشياء غمرني الفهم كان قد فات الأوان، أما أنتم
ألا يفوتكم الأوان مثلي. وحتى أكون بمعانيها. وكل ما يمكن أن أتمناه لكم هو
ولا أترك لكم المجال لتقرقيب الناب نزيها معكم إلى أقصى درجة في النزاهة،
الشمع من وراء ظهري، أضيف أنه (حسب تعبير صديقي الكازاوي) وتقطير
الأمور، سأختم قبل أن تنتهي ليس من عادتي أن أختم، ولكن هذه المرة تختلف
الأخرى ستدركونها عندما تخلص الحكاية، لأنني توصلت إلى خاتمة أبدية هي
فبقدر ما كنت مسؤولا عن سيرتي بصفة نهائية، وتصبح تحت مسؤوليتكم،
عشتها فيه، بقدر ما أصبحتم سيرتي قبل أن تخلص في زماني الذي عشته فيها أو

نبستم بالكلمة الأولى من أنتم مسؤولون عنها، في زمانكم هذا، وذلك منذ أن
.منذ لحظة السطر الأول من الصفحة الأولى التي بدأتم قراءتها

لكني بالتجربة وشيء من الحدس .هل تتذكّرون هذه الكلمة؟ ربمّا نعم، ربّما لا
أراكم.. لماذا تسخرون؟ لا تصدقون والتدخل فيما لا يعنيني، إضافة إلى أنني
أرى.. أراكم من ثقب الكتاب، لا، لا ..بأني أراكم، إنني لست أعمى.. أرى.. نعم
لأنك لن تجده.. ألم أقل لكم إنني أرى، تبحث عن ثقب الكتاب يا عزيزي القارئ،
التي أراها فيكم أنكم سريعو النسيان. لقد نسيتم صدّقتم الآن؟ مثلا من بين الأشياء
أول كلمة نبستم بها. غريب كيف تستطيعون هكذا أو نسي جلكم أني سألتكم عن
عليها هيكلكم الخارجي وسراديبه الداخلية، كلمة وبسرعة البرق نسيان كلمة بني
انفراد، بل أكثر من ذلك، إنها جزء من جلدتكم، بها تخص كل واحد منكم على
العيش من دونها، وإلا أصبحتم مثلي، نوعا من لا ولها تحيون، لا تستطيعون
.شيء، لا أنا

هيّا تلصّصوا، انظروا هيّا، ماذا تنتظرون، أعرف أنكم تموتون في التلصص،)
سريعا حتى لا تضيعوا من ثقب الباب، اقلبوا الصفحات وتأكّدوا منها، وعودوا
.(رأس الخيط وتفوتكم الأشياء

لزمانكم لا زالت في نعم، لقد أصبحتم مسؤولين عن حكايتي، لأنها بالنسبة
عليكم جو القراءة، بدايتها. بكر. ولكي لا تحصل لكم سرعة القذف وأعكر
النزول وأثناء ستكون خاتمتي نسبية كالتالي: إن الهدف الأول والأخير قبل
فيها الأزل الحضور وحين العودة يتلخص في كلمة واحدة كاملة شاملة يجتمع
.والأبد: جنس

.هذا ما ستنتهون إليه بعد ذكر كل ما سيجري من الوقائع التي تتبع
.أما الحكم فهو أبدا بيد الحاكم. كما أن الأمر أبدا بيد الآمر

بأحكامكم. خذوا الأشياء بتريث، لأن لكن إياكم أن تستبقوا الأحداث أو تستعجلوا
الذي تعجل بالأكل من تلك الشجرة؟ العجلة من جدي كما كان يقول الشيطان. من

.سأل أبي. الشيطان؟ سأل مجيبا

*   *   *

ينتظرني هناك أمام باب جئت ماشيا على قدماي حتى وصلت حومة الشوك. كان قلت له بأن يترك حالي في .مسجد ابن القيم، مرتديا لحية كثيفة. سألني عن حالي :بين شفتيه مُهمرجا حاله. غمز الفراغ ولمزني بنظرة معاتبة خائبة وتمتم

.ـــ نعل(*) عليك الشيطان

:همزت

وديسلوجيا رهيبتين) ـــ الله ينعلو(*) ويخزيه ويعذّبه ويشقيه وينعل(*) (ديسليكا .حتى الذي فكّرنا فيه. أظن أنني هكذا رددت عليه

الدنيا وما ـــ لا تشتمني يا ابني.. أنا أعرف أن حالتك صعبة وأنك ساخط على .الصابرين فيها، ولكن لا تقنط من رحمة الله الواسعة. إن الله لا يضيع أجر

نحن لم نقنط بل ..ـــ لا واسعة ولا هم يحزنون ولا أي شيء آخر، يا السي الفقيه واسعة على القليل الدنيا هي التي قنطت منّا.. عيينا من الصبر، لماذا هي دائما يا السي الفقيه.. لأنك لا القليل، وضيّقة على الكثير الكثير؟.. لا تستطيع الجواب أشتمك، بل أشتم الزمان المنحوس ترى ولا بصلة.. أما فيما يخصّ الشتم، أنا لا .(سلعة خامجة الذي عرفني بك. (لم أكن أعرف أنه سيبيع لي

ووجوده: الله ينعل(*) أبو كنّا كثيرين ممن كانوا يشتمون الزمان ويلعنون أباه هوة إلى هوة أسفل منها. كلّ الزمان الغدّار.. لأنه كان السبب في تدحرجنا من الشعير، ويطحننا، مثل الدقيق، مرة تقدم فيها الزمان يدرسنا، كما تدرس البغال ويلتهمنا خبزة كاملة مكمولة، كنت ويعجننا ويقرّصنا ويطرحنا في الفران، لمسنا أسفل سافلين. قاع الخابية.. .وأمثالي نُحسّ أن لا درك أسفل من دركنا تمنّيت أن يقطع الله ذنب هذا الزمان هكذا كان يتهيّأ لي في البداية. كم مرّة إلى الأبد. كنت أنعته بابن القحبة.. وأركب المتطاول ويشرّده ويذلّله. أن يقطعه يركض محنطزا كالحمار فيوقعني ويتركني على خيلي. لكن كلّ مرّة كان خيلي حومتي، وكان هذا يجعلني أشعر بإحباط الدائمة، على الجصّ حسب تعبير أهل

يطوقني، ورائي يتولى متراجعا وأمامي لا شديد، لأن الزمان اللعين كان دائما
بتره الله كما بتر الأزمنة الغابرة. كان أبي .أدركه. أنا وراءك والزمان طويل
حومتنا يسب أبا الزمان وأمه العاهرة وهو يقول إن يضحك كلما سمع أحد أبناء
إنه مثلنا مقطوع من شجرة. فهمت فيما بعد، عندما لم الزمان لا أب ولا أم له،
!بسبنا الزمان لم نكن نسبّ سوى أنفسنا يعد الفهم ينفع، أننا

* * *

البشرى وأزفّ في حضرت الفرصة لأعيد الاعتبار لتاريخي الصدئ وتكمل
دخيلة.. لم أسمعها قط النهاية آلاف المرات إلى ما نهاية.. زواج سرمدي.. (كلمة
ربما إنه ذلك الشخص .ولا أعرف معناها، مثل كلمات كثيرة سبقت في السرد
الفرصة ليتكلم باسمي، لقد المتطفل الذي حذّرتكم منه يشاركني الحديث، وينتهز
وأعلمكم، أني لست مسؤولا عن سبق وأن نبّهتكم بذلك وها أنا أنبهكم من جديد
حياة عديمة الوجود بين باقي كلامه). ليست إلا هنيهة وتنسى حياتك اللئيمة،
الدائم، السرمدي.. ها أنا أراني الموجودات، وسترقى في نفس الهنيهة إلى الثابت
كما أتين بكرا بكرا بغير دم ولا أجامعهن واحدة واحدة وجماعات جماعات ويعدن
.لا ينثني نقصان وأنا الشهي أشهد أن عضوي قائم أبدا
:قال الفقيه

ــ هل تعرف حومة الشوك؟ خرجت كلماته متواترة من فم لا شفتين له، طغى
.عليهما زغب لحيته وشواربه المتناثر
الطارّ أو ــ بطبيعة الحال أعرفها! ومن يعرف غيرها؟ كأنك تسألني عن جبل
كان بو قجّة منهاتان أو بلاصا كطالونيا أو حومة خاي أحمد بو قُجّة (فيما يقال
(هذا ثاني مؤسس لحركة الهيبّي بعد سيدي هدّي.
ــ أين تسكن؟
ــ أسكن في طريق الجبل الكبير؟
ــ أين؟ في حومة الشياطين؟
تعني؟ ــ حومة الشياطين! (تعجبت) لماذا حومة الشياطين؟ (تساءلت) ماذا

وتظن أنني (استفسرته) هل تعني أن أختي قحبة؟ أو ربّما يهرب لك الريح بالقفة الفقيه، أنا لا زامل أو من المخنثين. (دخلت فيه) أقولها لك من الآن يا مولاي ...علاقة لي بالتزوميل لا حقيقة ولا مجازا.. والفاهم يفهم

خردة كانت مستودعة أذكر ولد السيكي حين قال لي مرة، ونحن صغار نسرق بمدرسة ومستشفى في دهليز من دهاليز مدرسة اليهود التي كانت ملاصقة السيكي، إنه الطليان، إن بعض فقهاء النصارى... أنت لا تعرف خوسي ولد يحب أولاد نصراني، كان يسكن في باطيو بينطو، كان النصراني الوحيد الذي في ذلك حومتنا ويحبه أولاد حومتنا، يمكن أن نصل إلى حدّ القول، وإن كان العشائري شيء من المبالغة، إنه كان يعتبر كولد من أولاد الحومة، بالمعنى معاشرتنا. كان للعبارة، كان لا يعاشر أحدا غيرنا، رغم أن أمه كانت تنهاه عن من الملح يُطرح يأكل الكاليينطي مثلنا، دقيق حمصّ مخلوط بالماء وبيضة وقليل كاليينطي كأنّه زار في فرّان الحومة، ويجب أكله ساخنا، ويقال إن كلّ من أكل الأطباق السبعة، لأنه لالاّ مكّة، وبالخصوص كاليينطي الشريف الزُّغبي صاحب أطباق من الكاليينطي في كان الوحيد في كل المدينة الذي يصل إلى بيع سبعة نوعنا، مثله مثل البيصرة اليوم. الكاليينطي كان في البداية أكلة الحازقين من إليك يا بيصرة، عبارة عن الطبق المفضل لدى أهل حومتي، البيصرة، كم اشتقت والملح ويحمل الكل للغليان فول يابس يوضع في طنجرة كبيرة مملوءة بالماء قصعة صغيرة)، ويضاف) حتى يصبح سائلا كالحساء، يوضع السائل في زلايف أبي يقول عن البيصرة: إن إليه قليل من الزيت البلدية (الزيتون) والكمون، كان الملعقة الأولى من البيصرة، لها نفس خصائص الخمر، كلّ مرّة، وأنت تتذوق الأخرى، حتى أن بعض تجد لها مذاقا ونكهة وطعما يختلف عن المرات أن يعطوكم الاختصاصيين في علم البيصرة بوسعهم، عن طريق الذوق فقط، هذا السنة التي زرع فيها الفول، وأي نوع من الفول، وفي أي منطقة زرع أثناء الفول، وهل هي منطقة باردة أو حارة. كل هذا يؤثر في كيمياء الفول يختلف، تكوينه، ولهذا مثل الخمر، وأنت تتمتع بزلافة بيصرتك كل مرة لك طعم النصارى، فمرة تأتيك نكهة الفواكه كالدلاح والبطيخ والفريسة وباخنّو وكرموس

بالزيتون، وفي أو اللحوم كلحم الجدي مبخر، أو القديد، أو الدجاج البلدي محمر المشوي، وقد حالة أخرى نكهة السمك كتغرة الشطون (طجين بلَم) أو السردين تحس بنكهة يحصل، ولكن نادرا، إذا كانت سنة نضج الفول سنة استثنائية، أن سمك السلمون أو الكافيار...

كانت البيصرة، على ما أظن، في حومتنا، الطبق الوحيد الذي كنا نتغنى به:

عاشت البيصر د حمّادي
فيها الكمّون والسوداني
كلها جميعا
وتخلصوا منها سريعا
البيصر لنا
ولا لغيرنا

إلا أن حتى هذه الأكلات حسدونا عليها.

فيها الخمر كان أبو خوسي، بيدرو السيكي، يملك حانوتا في البوليفار يبيع ربّما لأنكم لم بالتقسيط، وقطع الثلج بالجملة وبالتقسيط كذلك. ليكن في علمكم، أو الكليماتيزورات تعرفوا حومتي في الفترة التي أحدثكم فيها عنها، إن الثلاجات أنواعه كانت كلها في التي تسعدون ببرودتها وكذلك السخّان (آلات الدفء) بكل والفواكه الباردة كالبطيخ حيز العدم، لم يكن يسعد بالهواء المكيف والماء البارد كان يسميه كرموس النصارى، والدلاح والبرتقال والشُّومْبو (صديقي الكازاوي لكل كرموسه)... إلا وبعض النصارى من الفرنسيس يسمونه كرموس البربر، قياد وباشاوات وأصحاب من رحم ربّي من النبلاء والشرفاء والألبة والأعيان من لا أتحدث عن شبكوني أو الكنوز القديمة الموروثة والمسروقة، والعسكر، بالفعل المخزن من الفئات الفقيرة نجوم الليل أو المرود، نوع من الميليشيات، استقاهم ويكسرون إخوانهم الفقراء وأعطاهم الزراويط وطلقهم كالجراد يطحنون ويملخون لفقير من فقير، لأنه يحرم مثلهم، وقد جاء في الحديث، حسب جدّي، ليس أكره لحيوان من حيوان مثله، عليه العيش، وفي حديث آخر، حسب أبي، ليس أبغض النجمات)، وكذلك المتاجرين) وما أعني بالعسكر الكبار منهم أصحاب الخُبْزات تبيعه أمّ الدابة، يذكرها الله بخير، بل في السياسة والنعناع، لا، ليس النعناع الذي

إلى منطقة كتامة)، وكذلك بعض النصارى، ليس النعناع الحقيقي، الكتامي (نسبة
كانوا في البداية تقريبا مثلنا مقطوعين من كلهم، الحق يقال، السيكي وعائلته
حومتنا، استيقظت حومتنا في يوم من أيّام الله شجرة، لا نعرف متى قدموا إلى
أحوالهم، كما سترونها بأعينكم، ستتحسن فيما بعد، فوجدتهم يقيمون جنبها، إلا أن
.من سوء إلى أسوأ، ستعاينونه كذلك ليس كأحوالنا التي صارت

أصل إسباني ممن اشترى بيدرو السيكي حانوت البوليفار، من يهودي من
أهل الحومة هاجروا إلى إسرائيل، بثمن بخس. كان يعمل ليل نهار، حتى أن
هكذا كالمجنون، كانوا يعطفون على حاله ويقولون: لماذا يشتغل بيدرو السبانيولي
ويصبح معوقا، ستتركه صحّته يوما ما أو ستأتيه سكتة قلبية أو نزيف الدماغ
يتجولون يركب كرّوسة المعوقين ككثير من المعوقين النصارى الذين نراهم
يصلون ممتطين كراريسهم، كل يوم أحد، بعد صلاة النصارى، لأن النصارى لا
الموخات يوم الجمعة كالمسلمين ولا كاليهود الذين يصلون يوم السبت، تدفعهم
المعوقين عند (الراهبات حتى يفهم صديقي الكازاوي)، قال جدّي السبب في كثرة
دودات النصارى آت من أكلهم لحم الخنزير، لأن لحم الخنزير يحتوي على
داخله، صغيرة تتخلل شرايين الإنسان وتتزحلق إلى أن تصل إلى القلب وتعشش
السكينجبير (علق أبي على كلام جدي العلمي هذا قائلا: ماذا يعرف الحمار في
تحصى من (الزنجبيل)، ولهذا السبب نجد عند النصارى نعلهم(*) الله نسب لا
لحم الخنزير، المعوقين، ويضيف أن نسب المعوقين عندنا قليلة جدّا لأننا لا نأكل
كذلك إن سبب (ردّ أبي أن الخنزير لا يستطيع أن يأكل خنزيرا مثله)، ويقول
سببها العروق التي تستحوذ على أرجل نساء النصارى وتصبح هكذا فضيعة،
كذلك لحم الخنزير. لم نر معوقينا، على جانب الطرقات وعلى الأرصفة وفي
الأسواق الداخلية والخارجية وعند أبواب المساجد والسينمات والمسارح
والمحلات التجارية والمباني الرسمية وغير الرسمية، بدون كراريس ومن غير
لحم الخنزير! صادفت مرّة جدّتي وقد شمّرت أكمام سروالها القندريسي أكل
للوضوء، لاحظت أن لون رجلها اليمنى كان أخضر بسبب العروق التي متهيئة
:عليها، سألتها إن كانت تأكل لحم الخنزير، أجابتني استولت

.ــ هل هناك خنزيرا أكثر من أبيك يا ابن الخنزير
.العيب فينا بالأطنان وحنا مواليه، لا لغة موحدة ولاماية

أنه على العموم إن بيدرو وانتهى أخيرا أهل حومتي إلى هذه النتيجة الحتمية
بيدرو صحته ولم يمت لا بسكتة السيكي لن يأخذ معه كل هذا إلى جهنم. لم يترك
صحته وأحواله المالية قلبية ولا بسكتة عصبية، بل العكس من ذلك تحسنت
الكبير في حومة جامع المقراع، وانتقل من باطيو بينطو إلى فيلا كبيرة في الجبل
مغربي هذه المرّة، رحل إلى اشتراها هي الأخرى من يهودي آخر، من أصل
ماتوا بالفقصة والغدايد (الغيظ)، أكلوا كندا، أما الذين ماتوا فعلا هم أهل حومتنا،
الشمع، أو تقرقيب الناب مثلما كان يقول صديقي جلودهم، ولم يبق لهم إلا تقطير
.الكلام لم يكن معروفا في حومتنا الكازوي، لأن هذا النوع من

أهل حومتنا وتبنّوه، صديقي الكازوي كان الشخص العروبي الوحيد الذي قبله
وما جوج، أولاد لأنهم لم يكونوا يحبون العروبية، أصحاب الداخلية، جوج
إلا وحلّ عندنا، بوهبّوج، كل من حرفته السعاية والتسول وأينما كان منتشرا
العظيم، يأتونك بغزارة وكأننا من الغنى بحاجة إلى يد عاملة لبناء سور حومتنا
مبنية على الفراغ. من بين وكأنه الحشر والنشر.. كان نوعا من عنصرية محلّية
الحومة واستولوا على المدينة، أسباب كرههم العروبية مثلا: أنهم عمّروا علينا
والزيت والشمع والفليطوكس وغلّوا ثمن الأشياء الضرورية كالطحين والسكر
كانت أمي عندما أنتهي من أكل وغبرة الفئران التي يسمّيها أهل حومتي الرهاج،
أن يمرّ عليها الماء: الله يعطيك البيصرة وألحس الزلافة وأتركها نظيفة من دون
بسبب أن معظم رؤساء كثير من الراهاج الذي يرهّجك ويقطع مصارينك، وكذلك
الصناعة التقليدية والتعاون الوطني المصالح العمومية والخصوصية من مندوبيات
والأوطيلات الفخمة وغرف التجارة والصناعة والتعليم والبريد ومديري الأبناك
كان كره أهل حومتنا والحوم المجاورة كرها .والفلاحة... كلّهم كانوا عروبية
الذين كنا نسميهم العروبية كانوا يعرفون أن أهل عبيطا، بهيميا، ساذجا، لأن حتى
طيّبون.. وكنا أيضا نكره اليهود، لأسباب دينية حومتنا أناس ساذجون، وكذلك
السياسة لم يكن لنا فيها دخل، لا تعنينا ولا نعنيها في أكثر منها سياسية، لأن

علينا مثل لحم الخنزير، كان جدّي يقول دائما: كل شيء إلا شيء، كانت محرمة
يردّ عليه: ماذا يخصّك أيها العريان، خواتم يا سيدي، لم يكن السياسة، وكان أبي
يهود حومتنا، كانت لهم نفس جنسيتنا، ويتكلمون نفس لغتنا، أحد يعرف أن
أكلاتنا، ويغنون نفس أغانينا، إلا أن كل ما كان يصلنا عنهم هو ويطبخون نفس
منافقون، أغنياء يجمعون الفلوس (لو كنتم رأيتم بعض يهودنا الأغنياء أنهم كفار،
أنكم أغنى منهم، وأن الصدقة جائزة فيهم) سحرة، يسرقون الأطفال لأدركتم
الذين لهم خط مستمر في وسط كفهم يفصلها طرفين، للبحث عن الكنوز، الصغار
سواسة الذين كنا نكرههم كذلك مثل الباقين، سكان بربر قدموا من مثلهم مثل
وأقاموا بالمدينة واهتموا هم الآخرون بالتجارة مثل بيدرو السيكي، منطقة سوس
لغة أهل حومتنا كما تعلموا الإسبانية والفرنسية والطليانية وحتى وتعلموا
البرتغالية، ونشطوا الحركة الاقتصادية، وأنشؤوا أول بنك متعاهد عليه لقروض
الاستهلاك ومن دون فائدة، إلا الزيادة في الثمن في بعض الأحيان، كان عبارة
عن كنّاش صغير بحوزة المستهلك يسجل فيه السوسي صاحب الحانوت
يشتريها الزبون والتي كانت لا تتعدى في غالب الأحيان، الضروريات التي
والشاي (النعناع كنا نشتريه من عند أم الدابة لأنه كان أرخص الحليب والسكر
الأحيان بدون مقابل وذلك عندما يكثر عليها النفاد) والقهوة والزبدة وفي بعض
الرومية، ريتا، زبدة التاج، مرغرينة، هكذا كان ينوع أهل حومتي أسماء نفس
الزبدة، حتى يكون لهم حق الاختيار بالمعنى الصوري، (الزبدة البلدية كان لا
الكازاوي يأكلها إلا من كان من فصيلة الأعيان) والميلميلادة (كان يسميها صديقي
.الكيميائية والملح الكونفيتور) وعود الثقاب والشمع والبترول والدقيق والخميرة

الأدوار، فكان في نفس الوقت كان السوسي، من أظرف سكان البلد، يقوم بكل
والبنك العالمي للتغذية والمنظمة المساعدة الاجتماعية والمنظمات غير الحكومية
يبيع ويشتري ويطارد الزبون المفلس ..العالمية للتجارة وبنك النقد الدولي
زبائن أخرين. لو كنت وزيرا للشغل ويتناسى بعض الكنانيش إلى حين ويقاطع
الذين سوّسوا قلوبهم في خدمة لكنت وهبت وسام الشغل لكل هؤلاء السواسة
يعمل السوسي طول النهار وأثناء الناس، كان الكثير منهم ينام داخل حانوته،

بوطاغاز عامر، نزّل بوطاغاز الليل، يحمل ويرفع وينزل ويصلح ويساعد، طلّع
كانت لرائحة الغمل (العفونة) اتفاقية خاو، طلّع خنشة الدقيق الأسود، سوده الله،
الخنشة بخنشة طحين الفرص (طحين يهبه مع هذا النوع من الدقيق، غيّر هذه
الفقير، طحين يو إس فورص) لأن الشعب الأمريكي الصديق لصديقه شعبنا
وعائلته للانتجاع. يشتمه الزبائن، خنشة الدقيق من كثرة الغمال عشّش فيها فأر
لكنته ولحنه... ورغم ذلك كان يقلّلون من قيمته، يتهكمون، يضحكون من
ولما تحسّنت حاله ماذا قال .السوسي يكوي قلبه ويقرص جلدته ليصل، ووصل
هجّرهم الجوع، أبو قفّاز، مثلهم أهل حومتي: هجموا علينا كالنمل والبقّ، عندما
.في شمال البلاد مثل الريفيين، سكان بربر من منطقة الريف،

في البداية في مدينة مجاورة، يقال فيما يقال إن ريفيا قدم هاربا من الجوع، أقام
إلى مدينتنا، وإنه لم يذهب إلى في حي يشبه حيّنا بالكل والتمام قبل أن ينتقل
أصبح كاتبا عالميا، يظن أهل المدرسة، مثل جل أطفال حومتنا، ورغم ذلك
الريفيون ليبيّنوا لنا أنهم أذكياء، حومتي أن هذا تخربيق، يعني خرافات اخترعها
ومدفون فيها، مرة أخرى هذا الفضولي (بالفعل هذا الكاتب عاش في مدينتكم
نعرف أحدا مثل كاتبك هذا. ربّما لأنه يتدخل فيما لا يعنيه، قل ما شئت، نحن لا
الفضولي)، كل ما هو مضبوط عندنا في حومتنا عاشر أناسا آخرين غيركم، قال
اختراعات المتطفل، أتى منها هذا الكاتب الأمي هو أن هذه المنطقة التي، حسب
ننعتهم بالمغندفين (متوحشين)، كنا نكرههم كذلك. وباقي الريفيين الذين كنا
بالنعناع الحر، ولم تكن مشهورة بمكتباتها أو أصبحت فيما بعد مشهورة
وحفيانين، وأصبحوا اليوم يبنون العمارات ويسكنون جامعاتها، كانوا عريانين
الكره الذي كنا نكنّه للعروبية وكذلك اليهود.. كنا نكره الأحياء الراقية و... نفس
نكره حتى أنفسنا.. كم مرّة صادفت صورتي تنتظرني في الناس جميعا وكنا
في دهليز البيت، وأنا راجع من ليلة طويلة من الكيف المرآة الصدئة المعلقة
أولاد الحومة في قهوة الحومة، كنت أكره أن ألتقيني عبر والتأملات الفارغة بين
علي، أسخر منّي، كم كنت أكره هذا الوجه الذي أحمله، رغم المرآة، كنت ثقيلا
وتشهد بذلك كل النساء عندما كنت أرافق أمي إلى الحمام، لأن أنني كنت وسيما،

وضعيتي، ووضعيتي تعبر عن وسامتي ودمامتي وجهي تعبر عنه:

أرى لي وجها قبّح الله خلقة فقبح من وجه وقبح حامله

ورغم كرهنا هذا العابر للقارات كنت أدافع عنّا، وأقر أنه كان كرها ساذجا، بهيميا، وحشيا، بدائيا، لكن من دون تخطيط أو أهداف معينة..

أواسط السبعينات، رحلت وعندما رحلت عائلة السيكي إلى غرناطة، كان ذلك في يستقر في مدينتنا، وهو فيه عائلات إسبانية كثيرة، قرّر خوسي بن السيكي أن البحري الآن يعمل مدير شريكة طرانسميديطيرانيا للنقل...

اختلطت علي العراريم.. لماذا حدّثك عن خوسي ولد السيكي؟

قاطف أرواح الشهداء وخاطف ــ اللهم ذكّرنا بالشهادة، قال الفقيه، يوم يحضر بعض الفقهاء النصارى خزاهم أرواح الجائفين النتنة.. قلت يا ابني إنه ذكر لك الله وأذلّهم وجعلهم في الدرك الأسفل من جهنم.

ــ جدّي عندما كان يخبرنا بموت نصراني من باطيو بينطو كان يقول لقد جافت مرسيدس.

ــ مرسيدس! تعني السيارة؟

ــ هل هذا مخّك أم إسفنج، ليست السيارة. بالله عليك، هل رأيت سيارة تجيف، أظن أنك أيها الفقيه تتحشّش.

ــ حاشا لله يا ابني حاشا لله، هل رأيت فقيها يتحشش؟

ــ هل هذا رأيك فعلا؟ مرسيدس اسم يطلق على نساء النصارى.

ــ إذن هي كنية. وليست اسما.

امرأة ــ لا، ليست كنية بل اسم حقيقي، قبل أن تصبح مرسيديس سيارة كانت تزوجت من ثري ألماني، وبعد ذلك أصبحت سيارة مثل مفتاح.

ــ مفتاح؟

ــ نعم مفتاح، ليس مفتاح الباب أو القفل، بل مفتاح اسم شخص مثل اسم

مرسيدس.

ـــ والله يا ابني دوختني.. أنا لا أعرف إلا مفتاحا هو الذي نفتح ونغلق به الأبواب.

ومثلك. هل ـــ لا أعني بالمفتاح "الساروت"، هل فهمت؟ مفتاح اسم إنسان مثلي تعرف عمّي مفتاح الذي يبيع القفف والأواني الخشبية؟

النصرانية ـــ الله يفتح علينا أبواب السماء.. نعم.. الآن فهمت. يعني اسم مرسيدس مثل السيارة. مثل اسم السي مفتاح بائع القفف في المارشي.

ـــ الله يأتي بالذي يفهمنا ولا يعطينا أي شيء. أنسيتني في الذي كنت أتكلم فيه، ضاع مني رأس الخيط.

ـــ اللهم ذكّرنا بالشه ـــ...

ـــ تكلّم من دون مقدّمات.

ـــ قلت أن جدّك أخبركم بأن مرسيدس جافت.

واليهود ـــ نعم. وكان يقول نفس الشيء عند موت اليهود. المسلمون يموتون جيفة. عندما والنصارى يجيفون، هكذا كان يعلّمنا. ولما يجيف الحيوان نقول إنه ظننت أن أبي كان كانت أمي تخاصم أبي، كانت تشتمه قائلة: سير يا ولد الجيفة، سألت أمي مرة لماذا نصرانيا أو يهوديا لمدّة طويلة. لكني اكتشفت السرّ عندما سيجيف مثل النصارى، تنعته بولد الجيفة، ردّت على التوّ: لأنه سكير بن سكير، (وسيدخل جهنّم (أضاف جدّي.

ـــ لم تقل لي ما قاله لك فقيه النصارى المنعول (*).

مثلك، يسمونهم ـــ نعم، تذكّرت، قال لي إنهم اكتشفوا أن بعض فقهاء النصارى البادريس، كانوا يهتكون عرض الأطفال في جوامعهم منذ سنين.

ـــ أستغفر الله العظيم.. حاشا لله يا ولدي، لماذا هذا الكلام؟

عندما نطقت ـــ لأن حومة الشياطين عامرة بالقحاب والزوامل. دخلني الشكّ، كلّها، وقد باسم حومة الشياطين. قل لي ـــ قلت له ـــ أنت لا تعرف في المدينة أغرقها الله بالحوم، إلا حومة الشياطين!

ابني.. نحن أمام ـــ أستغفر الله العظيم.. ما هذه التلميحات، شيئا من الحشمة يا مثل هذا الكلام؟ هل بيت من بيوت الله.. اترك عنك هذا الكلام الساقط. من علمك

فاحشات كنت تعاشر هؤلاء الفجرة من باغيات فاجرات عاهرات زانيات مومسات وشواذ لوطيين؟

أو الزوامل، ولا الجهات لاحظت أن الفقيه لم يستعمل ولا مرّة كلمة القحاب) من قاموس حومتنا الشعبي، الرسمية، ولا المدرسين ولا المؤدبين، لأنها مستقاة القحاب بالباغيات والزانيات وكل ما يأتي من الشعب نجس وساقط، وكأنه بنعته ويعطي القحاب مكانة أنسب والعاهرات يقلل نوعا ما من حدة ووطء الكلمة ربمّا لأن مخارج حروف وأشرف، كأنهن لا علاقة ولا صلة لهن بالقحبنة، أو القحاب، القبح، القحط، القحل، :هذا النوع من الكلمات صارٌ تقشعر منه النفوس وأروع المجازات والاستعارات التي القرح، القدح، القراديح.. إن أجلّ وأجمل بائعة الذلّ والهوان، كل يصب فيها سائله، !وصل إليها التقحبين هو: بائعة الهوى والذي يرسل طلقات من البصق الممزوجة الذي يشتمها والذي ينبح في وجهها يا مولاي، لا أقل ولا أكثر. نسيت، يجب بالقذف... بائعة الهوى! إنه التقحبين، ورجال السلطة وحدهم، وأنا شاهد على أن نعطي لقيصر ما لقيصر، البوليس يستعملون هذه الكلمة بصراحة ذلك، أضع يدي في النار، البوليس وحدهم .(درجة أنهم يبالغون في استعمالها وفصاحة لا مثيل لهما، يستعملونها بكثرة إلى

ــ مرة أخرى نسيت سؤالك. ومن دون اللهم ذكّرنا بخاطف الأرواح... التي .تفرع الرؤوس وشيئا آخر
...ــ سألتك إن كنت تعاشر هؤلاء الباغيات الفاجرات
تعرف القحاب.. ــ لقد بدأت تخسّر الكلام أيها الفقيه.. كيف أعاشرهن!؟ أنت لا تشرنوبيل أو الذي ليس معه فلوس كلامه مسّوس.. تظن أنني جئت من مكة أو من باطيو كولومبيا.. أتظن أن القحاب والزوامل سيعاشرون واحدا مثلي جاء اللعاقة) بينطو؟ إنك تخرّف أيها الفقيه، إنهم لا يعاشرون إلا أصحاب الفلوس، طوال حياتي مثلما يقول صديقي الكازاوي). هل تعرف أنني لم أبس ولم أقبّل بنتا الصغيرة، ورأس اللعينة هذه، وكل ما مارسته من القبل كان على وجنتي أختي موسى بن أمّي، ويدي جدّي وجدّتي... وباستثناء تجربتي اللعينة في شارع القحبة، أو نصير.. وكذلك مرّة عندما بست يد رجل سلطة، كان قد نعتني بولد

في حياتي، بولد الزامل، لم أعد أتذكر، من كثرة ما سمعته من سبّ وقذف وشتم
دهاليز لأنه لولا ذلك لكان إستي قضى ليلته يسخّن برد الرخام في أحد
كانت الكوميساريا.. أذكر في بداية شأني، أن أمي كانت كلّما رأتني أبكي،
على تقبّل تشتمني قائلة: اسكت، الله يُسكّت حسّك.. إن الشتم المبكر هذا يعودك
والقذف والسب... الشتائم، تصبح نوعا ما مهندا أمام جميع أشكال وأصناف الشتم
.هل تعرف هذا؟ يا بني آدم

المشترك بين أبناء الحومة، نتعلّمه أما الكلام الساقط فهو الكلام المتداول والقاسم)
الأطفال عندنا، وفي ورشات الشباب تدريجيا بالموروث في ساحة الحومة روض
وأماكنها المظلمة وما أكثرها، في ساحة المدرسة الخارجية وسراديب حومتنا
الكلام الساقط الذي يناسب وبعدها يتخصص كل حسب شعبته في نوع من أنواع
أكثرها، كالإقرار مثلا بأن يصبح اختصاصه. كما كنا نقوم بدروس تطبيقية، وما
أو ماريكيطو حسب خوسي ولد أحد أطفال الحومة، بين عشية وضحاها، زاملا،
وسيما، ونفس الشيء بالنسبة السيكي، رغما عنه، وخصوصا إذا كان هذا الطفل
واليهود والسبانيول، ربّما كان للبنات، أو كسر مصابيح النور في حي الطليان
حومتنا من المصابيح العمومية انتقاما منهم ومن شركة الكهرباء التي حرمت
والقنديل والشمع واللامبا. أما آباء والضوء الصالح للإضاءة، وهو غير الفتيل
الحياة، فلم يكونوا على علم بما يحصل في وأمهات الحومة الذين أكلهم سرطان
الدروس، جوانب الحومة الخفية، الخافتة. كل ما هذه الأماكن التي يتم فيها تطبيق
الجيران ذي الأخلاق الذميمة على أبنائهم الطيبين كان يخيفهم هو تأثير ابن
عليهم، لأن جميع أبناء الجيران الآخرين من فصيلة الحنونين، ما شاء الله
أخلاقهم مدحورة ومشتبه فيها، إلا أبناءهم، ولكن لا أحد الحيوانات المفترسة،
الأخلاق الذميمة؟ أما قمة عناية الآباء والأمهات بأبنائهم في سأل ممن ورثوا هذه
المجاورة، لأننا كانت بيننا اتفاقية توأمة فيما يخص التربية، كانت حومتنا والحوم
غالبا في: أين كنت يا ولد الحرام؟ أو يا بنت الزنا؟ هذه الساعة التي يرجع تكمن
فيها الناس؟ (حتى أنك وإن كنت قضيت النهار كله في البيت نائما أو مريضا
وخرجت دقيقتين لتبول أو تنفس بطنك مثلا ورجعت فلا بد من أين كنت يا ولد

الحرام هذه) وغالبا ما يكون الجواب: كنت في الزنقة. وكأنه رجع من روض الأطفال. أين تريدونه أن يكون؟ ليس له إلا مرجعية واحدة وسبيل واحد، مسرح الحياة، روض الحومة المفتوح على مصراعيه، لا حارس يحرسه ولا مؤدب منشط ينشطه... الأب يكسّر والأمّ تساعده والجار متواطئ في التكسير يؤدبه ولا (والمقدم والباشا والحاكم ورجال الدين بكل تشكيلاتهم كلّهم يكسرون والمعلم.

ولا يمكنك أن تتصوّر ..ـ هذا من فضل ربي. أجابني.. إنك محصن يا ابني ...لهن نهود و وصالهن، مكافأة المحصنين. الحور العين بحسنهن وجمالهن ولذة .ـ كفى من الوصف.. ادخل مباشرة في الموضوع. قال بلهجة سلطوية قرآنا، لأنه عندما ـ الوصف.. كلّه في الوصف.. قرأ علي شيئا ظننته في البداية كلّما انتهى التليفزيون انتهى من القراءة قلت بصوت عال، مثلما كان يفعل جدّي العظيم. إن الكثير في حومتنا من من قراءة القرآن قبل نهاية الإرسال: صدق الله بعد، عندما وصلت الكهرباء إلى الذين اشتروا تلفيزيونا، أسود وأبيض، فيما أثناء مشهد من مسلسل كان الحومة والذي كان يقطع باستمرار وبالخصوص جزاء أثناء مقابلة بين فريقي بمثابة الحل للغز دام عشرين حلقة، أو لقطة ضربة برشلونة، لأنني كان لي عمّ، برشلونة وريال مدريد، أنا كنت من أنصار فريق كطالونيا، لم يزرنا عمّي هذا حسب أبي، يعيش في برشلونة، بالضبط في بلاصة لا نحشّمه مع الكاطالونيين، كانوا أبدا، يقال إنه لم يرد الاعتراف بوجودنا حتى إلى ما بعد منتصف الليل، لا يقضون نهارهم مسترخيين أمام صندوق العجب كان باستطاعتهم أن يضعوا يتحركون، كأنهم موميات إلا إذا حضر البول، ولو أماكنهم (طيطم بائعة النعناع كانت أنبوبا مباشرا يلحقهم بالكنيف لما تحركوا من ماء، كانت الفئران والجرذان تعشش تسمي الكنيف ببيت الماء، لكنه كان من دون الذي تفرغه بانتظام بطون آل البيت)، بجواره منتظرة نصيبها من الطعام اليومي الشاطئ، وعندما ينتهي الإرسال يولون يظلون هكذا وكأن البحر قذف بهم إلى نمشي ننعاس (نتّكى في بلاد ظهورهم مكررين نفس العبارة: عييت غادي عليه طريقته في النطق العروبية حسب صديقي الكازاوي، كم مرة عيّبنا ذلك طبيعيا، لأننا كنّا والكلمات الغريبة التي يستعملها لتسمية الأشياء، وكان

وأجملها، أقرب إلى اللغة المعيار وثيقين كل الثقة أن لغة أهل حومتنا أمتن لغة فينا بالأطنان... لا لغة موحدة لا من أية لغة أخرى على وجه الأرض... العيب بصوت جاسوسي أنه ليس بقرآن ماية). احمرت وجنتاه وخرجت عيناه وأفهمني القيّم.. ظننت ابن القيم هذا في بل هو شعر لشخص له نفس اسم المسجد.. ابن مساجد لوجه الله بأموالهم الجديدة.. أموال البداية من الأغنياء الجدد الذين يبنون عندما شرح لي شعره وفهمت معناه ضحكت وقلت الزيت والنعناع.. أتذكر أنني في نفسي......

ـــ ماذا قلت؟ قل. قال بنفس النبرة السلطوية.

ـــ أقول؟

ـــ قل! قلت لك. قال.

ـــ متأكد؟ قلت.

ـــ تريد أن تقلّل الحياء. قلت لك قل. أتشك في قولي أيها الوغد عندما أقول لك أن تقول؟ قال.

على ما يتبيّن لي، ـــ وأنا مالي، قلت، أقول. قلت: ابن القيم هذا كان، والله أعلم الذي جعله يقول كان قطعانا (أي ظل بدون علاقة جنسية مدّة طويلة) الشيء عندما أشاهد الشعر متخيلا المنظر، فقام إثره قضيبه، يحصل لي نفس الشيء أفلام الجنس في مقهى الحومة بعد منتصف الليل.

ـــ احترم أيها الحمار. قال الصوت السلطوي.

ـــ أنت الذي قلت لي أن أقول فقلت، أنت لا تعرف ما تقول.

ـــ قلت لك احترم أيها الخنزير.. وتابع.

ـــ نسيت.. قلت ثائرا.

ـــ طيّب.. تابع.. ماذا قرأ عليك؟ قال الصوت هذه المرة وقد تخلى مؤقتا عن سلطويته.

ـــ قلت: قال الفقيه: قال ابن القيم رحمه الله:

فاسمع صفات عرائس الجنات ثم اختر لنفسك يا أخا العرفان
حور حسان قد كملن خلائقا ومحاسنا من أجمل النسوان
حتى يحار الطرف في الحسن الذي قد ألبست فالطرف كالحيران

ويقول لما أن يشاهد حسنها سبحان معطي الحسن والإحسان

والطرف يشرب من كؤوس جمالها فتراه مثل الشارب النشوان

كملت خلائقها وأكمل حسنها كالبدر ليل الست بعد ثمان

والشمس تجري في محاسن وجهها والليل تحت ذوائب الأغصان

سألته: وما معنى كل هذا؟ وصف لي القصيدة بحورياتها، حرفا حرفا بحماس وإخلاص ليس لهما مثيل، وكأنه قد وصل للتو من الجنة.

قلت: أريد أن أذهب إلى الجنة فورا.

ــ مهلا يا... (لم يكن يعرف الفقيه اسمي الذي، من غير حياء ولا حشمة، سيغيره فيما بعد دون أن يشاورني) ما اسمك؟ لم تقل لي ما اسمك.

ــ وأنت طلبته منّي؟

ــ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. ما اسمك يا ابني؟

ــ السيمو.

ــ السيمو؟

ــ ما له، لم يعجبك؟

ــ لا، حاشا لله.. ولكنه اسم غريب.

ــ لا غريب ولا شيء.. أنا اسمي محمّد مثل مرسيدس أو موشي أو مفتاح، وأنت ذلك في تعلم أن كل من اسمه محمد يجب عند ندائه وضع السي قبل محمّد لأن الدين، وأنت رجل ضالع عفوا ضليع في الدين تعرف ما يقوله الحديث: ولاّ سيّدو وليس حيّدو (طأطأ رأسه موافقا أو مؤكدا صحّة الحديث)، هكذا علّمني جدّي، لأن أبي كان يشرب الخمر ويدخن الكيف.

الماعون، هكذا كان يسمي أبي غفا أبي مرة من كثرة تدخينه الكيف، فأخذ جدي وهزيل، مكون من ذكر مواعينه، وهي عبارة عن سبسي، غليون محلّي طويل مرور الزمان ومن كثرة وأنثى، وشقاف من الطين الأحمر إلا أنه يصير أسود مع يضع فيه السبسي بعد أن الاستعمال، ومطوي من الجلد الرخيص يقوم بدور الغمد الساكن بداخلهما، مثل الذي ينزع الذكر عن الأنثى وينظفهما بإخراج القار الأسود البلاسطيك يضع فيه يسكن في أعماق جدّي، وينظف الشقاف كذلك، وكيس من

الماعون في مكان، رزمة الكيف المقصوص والمدرّح بورق الطابا. رمى جدّي
الجبل الكبير. عندما على حدّ قوله، ما بين وادي اليهود ورمل قالة، في طريق
حلف أنه إن حاول أبو رجع أبي من غفوته التي دامت شريطا ولم يجد الماعون،
كان أبي رجلا مسالما، .زوجته تجديد العملية مرة أخرى لن يُمنّعه هذه المرّة
لأنه عندما يكون سكران، يحلف كثيرا ويتكلّم قليلا ماعدا عندما يكون سكران،
العنان، يكشف عن عيوبنا، هات ما عندك للفرجة وللفرح والمرح، يطلق للسانه
أبنائه، يعني أنا وأختي يعني عيوب زوجته وأبيها وأمّها (لا يذكر أبدا عيوب
وأبناء جيراننا ومقدّم حومتنا، الصغيرة، كان يعشقنا حدّ الجنون) وعيوب جيراننا
السياسة يمينا ويسارا، والفقهاء وكذلك الخليفة والقياد والباشاوات وأصحاب
.والمنحرفين والأئمة وكل رجال الدين الحقيقيين منهم

تلبس النساء والبنات أزهى .كان سكان الحومة يتهيؤون لاستقبال أبي يوم سكره
ولا يعكرن (أحمر الشفاه الثياب ويضعن الحنّة على أيديهن ويكحلن ويسوكن،
الأحمر البرّاق، علامة من للأجانب)، كلّه إلاّ العكار، لأن العكار، وبالخصوص
باطيو بينطو كنّ يعكرن كذلك، فكن علامات التقحبين، كلّ النساء السبانيوليات في
عقل، وبدون استثناء قحبات، حتى بالنسبة لعقلي الصغير، لا أظن أنه كان لي
أحد أبناء الحومة وقد مكث مدّة لا أنني كنت متيقنا أن إسبانيا كلها قحاب، رجع
بلاصا كاطالونيا، لأنني سألته مرّة إن كان بأس فيها في إسبانيا، لم يكن يسكن في
لأنه لا يسكن في برشلونة بل في حومة بعيدة يعرف عمّي، قال لي إنه لا يعرفه
الباريو، كما أكد لي أن عمّي هذا كذّاب، لأن تشبه حومة باطيو بينطو اسمها
بينطو، إنها ساحة راقية جدّا ولا يسكنها إلا القياد بلاصا طاطلونيا، ليست كباطيو
الإسبان، لا يمكن أن يسكنها عمي إلا في حالتين، والباشاوات والأعيان من
الكينيينة (يانصيب كرة القدم الإسباني) والثانية، وهي الأرجح الأولى أن يربح في
أن يكون من متسكعي بلاصا كاطلونيا، لأنهم يسكنون في المترو، :على حدّ قوله
إن كانت إسبانيا مكتظة بالقحاب، أجاب: القحبنة قد عششت في وحين سألناه
وما سايقين لها خبار. كثيرا ما كنت أسمع أمي وهي تخاصم أمخاخكم من زمان
أنواع العذاب خاتمة وعيدها: إذا خلّيتها فيك أجي عكّر لي... أختي وتعدها بكل

عند الحلاق وبعدها إلى الحمام، ويجري الأطفال يطوفون في كل ويذهب الرجال
:مبشرين معلنين قدومه أرجاء الحومة

أبو السيمو سكران
احضي رأسك يا فلان
أبو السيمو سكران
...لا يفوتوا بك القومان

منه كل أطفال حومتنا، كان ذلك اليوم يوم عيد، يوم فرجة. السرك الذي حرم
سرك عمّار الذي كان يقام باستثناء خوسي ولد السيكي الذي كان يرافق أبواه إلى
ريمون إيكاخال الإسبانية، مرّتين في السنة في ملعب الرومان المواجه لمدرسة
لعيوبه وبالخصوص عيوب كان يوم عيد الأعياد، لأن الجميع مشتاق للاستماع
عيوبنا، ويأتي أبي الآخرين. ما أجمل ونحن نفرح بعيوب الآخرين ناسين
التي تلصق جلدنا، يتوسط بخطاباته البارعة وهو سكران لينصحنا ويذكرنا بعيوبنا
سيجارة، ينتر نترة أو نترتين، فناء حومتنا، يشرب جغمة من ماء الحياة، ويشعل
طريقة سيرج غانزبورج، لا يرفع رأسه ببط جهة السماء وكأنه يعاكسها (على
إلى الفضاء، ويخيم على أعرف هذا الشخص)، يتنفس بعمق ورأسه دائما تنظر
خارقا هذا الصمت فناء الحومة صمت الجبانات الفرعونية، وينطلق صوته
مع استحالة المطبق علينا والمنضّد منذ قرون بحرف "لو" الذي يفيد الشرط
أحوالكم تحقيقه: لو كانت السلطة بيدي لأمرت أن يسكر الجميع حتى تستقيم
وازرع لي ويذهب الغش والنفاق والكذب والتخرويط والشقاق والتبليغ والتواشي
صغيركم أزرع لك، حتى يعرف الناس مدى إنسانيتهم من بهيميتهم، لأنكم جميعا
الآخرون وكبيركم من صنف البهائم (يعني من المقدم إلى ما تحت)، يضع عليكم
كالحمير (يعني من المقدم إلى ما فوق) أثقالهم وأعباءهم وتقبلون هذا الوزر
في خشوع وخضوع ومذلة (أبي لا وكالبغال، مزغردين ومصفقين ومهللين
يتحدث هكذا إلا عندما يكون سكران، يكون أميرا بين الشعراء وحكيما بين
.(الفلاسفة
:رجالكم

العاشقين ف النبي نصلوا عليه
آ جاه النبي،
جاه النبي العظيم
الجنة للصابرين
النار للقوم الكافرين
الله ينصر علم النبي

نساؤكم:

الصلاة والسلام عليك أرسول الله
إلى جاه إلى جاه سيدنا محمد
الله مع الجاه العالي

يويويو يويويو

كاملة! هكذا تقنطون من ما بكم؟ أرى أنكم لم تستطيعوا قراءة هذه اليوهوهات الذين قضينا طول بضعة يويوهات تملأ بالكاد ثلث صفحة، وماذا نقول نحن ليل نهار، صباح مساء، الأوقات من حياتنا المريرة نستمع إلى إليها بالرغم منّا الباكر وفي وقت الظهر قبل منتصف الليل وبعده، قبل الفجر وبعده، في الصباح وعند الزوال وبعده، في المناسبات ومن غير المناسبات.

الكناوي ويطلق البواردي ويغيط الغياط ويطبل الطبال وينفر النفار ويقرقب بالأطنان، والبسطيلات من شتى البارود وتُزَوِّط السيارات، وتأكلون الكسكس الصينية واليونانية وحتى الألوان بالحمام وبأغلى الأسماك، وعلى الطريقة الحشو، ولحم البقر الذي شحمه الهندية، والدجاج المحشو بالعشرات بكل أنواع

الحلو، وتكسرون قوالب السكر أكثر من لحمه، والحلويات الدسمة المفرطة في ملأتم بطونكم بخليط (كوكتيل) من بالأطنان، وتشربون الشاي، بعدما أن كنتم قد المرابط وجيدور وكروش وأطلس كل أنواع المشروبات الغازية من إخوان والصفراء والحمراء وهوغار والسبعة (سفن آب) وبيبسي وكوكا وفانتا البيضاء محليّة من السكر الخالص كان (هوغار هذه لا يعرفها إلا أهل حومتي، ليمونادة المرابط التي كان يصنعها يصنعها الشيكي بنفسه، مثلها مثل ليمونادة إخوان صالات السينما كسينما المرابط وأخوه وتباع بثمن بخس. تجدها بالخصوص في في سينما اللوكس أو الريف وكازار وكبيطول وميريكان وفوكس، لكنك لن تجدها سينمات راقية يتردد عليها غويا أو الروكسي أو موريتانيا أو باريس، لأنها كانت بتنوع الطالب والمطلوب والظالم أناس راقون). وتتنوع أماكن الزردة ومواقيتها أياما وليال وأنتم من الجوع والمظلوم. تزردون من جوعكم، وتدوم الحفلة الجهل للجهل تموتون، لا تموتون ومن الجهل تموتون وبالجهل تموتون وفي سرائركم ومن وراء ستائركم تستطيعون الجهر بالأشياء، تتكلمون مختبئين داخل ..حتى لا يسمعكم الغاشي وهو ماشي

للأجانب) فيها ماء الحياة، يتوقف أبي عن الكلام لحظة، يخرج قرعة (قارورة الألوان الزاهية، يضع القرعة يتجرع جرعة طويلة، يمسح شفتيه بكمّ قميصه ذي الطريقة الغانزبورية) وكأنه في جيب سرواله، ينظر مرة أخرى إلى السماء (على :يعاكسها، ثم يقول

اشربوا البينو، الطينطو ــ افعلوا مثلي، اشربوا ماء الحياة لتحيوا من جديد، عليكم بالسكر، سيساعدكم .(الخمر) البلانكو، الروخو، لا يهم، اشربوا لتصحوا بعضكم بعضا وتجهرون على الكلام، إنه يطلق اللسان، ويسلطه، فتفضحون واللحن، ويرحل عنكم بأسراركم، وتصبحون فصحاء، وتهجركم العجمة واللكنة يمنعه من الحديث في الجبن والغباء، وتصبحون أخيرا بني آدم... لدى كان جدي شؤون الرعية، لأنه الدين، كما كان يمنعه المقدم عن الحديث في السياسة وفي وبين الخنزير، مثلما كان يقول جدّي، السلك المفقوص نجس خنز لا فرق بينه يسألنا، وكنّا نجيب وهل يستطيع الخنزير ــ لعنه الله ــ الحديث في الدين، كان

ومسخه ــ الحديث في بعدما تكتمل الجوقة: لا، لا يستطيع الخنزير ــ لعنه الله أمّي) وأختي وأبناء الدين. الجوقة، يعني أنا (لأني ساعتها كنت ما زلت ابن الجيران وكثير من أبناء حومتنا وبعض الحوم الحدودية.

ــ أنت لا تعرف حومتنا القديمة، قلت للفقيه. أجاب الفقيه مترددا بالنفي وكأنّه أحسّ أنّني بسؤالي هذا أحاول الكشف عن أسراره الدفينة.

السي الفقيه.. آه على أيام ــ ما لك تُفقفف كأن البرد ضربك. حومتنا القديمة يا القديمة هي حومة صدام.. لا، زمان في حومتنا القديمة.. لا تظن أن حومتي مثلها مثل حومة الشوك، ليست حومة صدّام، لأن حومة صدام حومة جديدة، باطيو بينطو، أو بالضبط ليست قديمة، لأننا قبل حومة صدّام كنا نسكن في حومة تبعد بكثير عن مدرسة قرب باطيو بينطو، قبالة جامع النصارى التي لم تكن عبارة عن مجموعة اليهود، كنا نسكن في شابولة، أعني برّاكة، كانت حومتنا يريدون الحديث عن براريك مبنية بالقصدير والياجور والقصب والخشب (عندما العربية الفصحى ستصفح مثل هذه الحوم ينعتونها بمدن الصفيح، يظنون أن اللغة النصارى، وبراريكنا كانت عنها وتستر عوراتها). أما باطيو بنطو فكان يسكنه من الطراز الرفيع، كنا نفخر تلاصقه. الباطيو حومة إسبانية من البراريك الراقية متحمسة وسريعة جدا، حتى لا نترك عندما يسألنا أحد أين نسكن، تكون الإجابة في سنطرال بارك أو نويي أو الزمالك أثرا للشكّ: في باطيو بينطو، وكأننا نسكن مرّة أحد أبناء أعيان المدينة متهكما، (هذا ليس بكلامي، أنا بريء منه)، سأل أصدقائه وصديقاته الذين كانوا من نفس مظهرا ذراعيه ورجولته وشواربه بين النعناع من الدّابة بائع النعناع المتجول فصيلته ومعدنه بعدما أن اشترى قبطة من:

ــ أين تسكن يا دابّة؟
أجاب الدابة تلقائيا بصوته الغليظ:

ــ في باطيون بينطون، هكذا كان ينطقها.
قهقه الذي قهقه وضحكت التي ضحكت.

.ـــ في باطيون بينطون. جميل. يعني أنك نصراني

على ابتسم الدابة من أنفه، من دون أن يجيب. ضرب حمارته ضربة لطيفة
الأبهة مؤخرتها بعصاه وتابع جولته في حي الأعيان والألبة والشرفاء أصحاب
من سراديب والرُّواء. يحسدوننا حتى في بؤسنا! لم يقلها الدابة بل نبعت منبجسة
نظراتها عليكم صمته. تعرفون أن الدواب لا تتكلم، ولكن هل لاحظتم أنها تركز
ليست كأنا بني في بعض الأحيان إلى درجة أنك تستحون من أنفسكم. أنا الدواب
.حومتنا آدم كان يقول أبي وهو يلاطف قطة أو يداعب كلبا من حيوانات

يتكلمون بالإسبانية، فبالرغم من النصارى الذين كانوا يسكنون الباطيو، كانوا كلهم
يتفادونها ولا يتكلّمون بها، ربّما أنهم كانوا يعرفون لغتنا عن ظهر قلب، كانوا
ونصرانيتهم، ويتبرّؤون من العرب كان هذا يجعلهم يتأكدون من إيبيريتهم
الجنس الرذيل، هم الآخرون كانت والبربر والمسلمين والأفارقة، وغيرهم من
أصبحت فيما بعد مخطّطة، ذات عنصريتهم في البداية عنصرية بهيمية، ولكنها
وهترهم.. كانوا لا يستعملون لغتنا أهداف معينة، سكنت دمهم وأمخاخهم وهذيانهم
مخصوصة، يوم الخميس مثلا إلا في أوقات مخصوصة لأغراض هي الأخرى
سوق أحد الغربية الجبلي وهو يوم السوق الأسبوعي للمدينة أو يوم الأحد في
المحلية (بيو)، وكل ذلك الذي يقصده سكان البوادي المجاورة لتسريب منتوجاتهم
فكانت في الكثير من الأحيان قصد المساومة والمفاوضة، أما استعمالاتهم الأخرى
هاد المورو، أنا أكول لك لا للشتم والسبّ: اغرب عن وجهي يا ولد الكحبة، يا
من بكعة إلى بكعة أخرى تكف هنا وأنت كالحكة التي تلصك بالجلد وتتنكل
النصارى في باطيو بينطو، بسرعة البرك (معذرة عن اللكنة، هكذا كان ينطق
أن أعظم سكان حومتنا لم كانت لكنتهم هذه تختلف عن لكنة سواسة، الغريب هو
بعض الأحيان يدرّحها يكونوا يعرفون أي لغة أخرى، يرفضون كل اللغات)، وفي
ماركون إي طو مادري بكلمات إسبانية: ييخو دي بوطا، طو بادري إيس أون
تناقلناها بالمأثور وأصبحت أونا بوطا كحيحبة، (حتى أن هذه الشتائم الأجنبية
المرجعية في ترسيخ الكلام متداولة بيننا، ومن أرقى الشتائم، لقد ساهمت هذه
كان لأبيك أصل لما كنت تخيط الساقط الراقي في حومتنا) يا من لا أب له، لو

مثل الكطط، الجنس ليلا الدروب حتى هذا الوكت المتأخر من الليل، مثلكم
معذرة مرة أخرى عن هذه) ...والولادة صباحا، حتى الكوليرا لم تعد نافعة
المهجّرين الذين طردهم اللكنة). أما جدّي، دفاعا عن حرمة الحومة من هؤلاء
الخيطانوس، الهجيج، أولاد بو فرانكو والجوع، كان يسميهم أولاد بو رقعة،
حلّوف... ويسمي لغتهم لغة أهل النار.

وبالخصوص في الأسماء وكنا لقد كنا في حومتي نفضل الاختصار في كلّ شيء
حميدو وعبد المجيد مجيدو وعبد نحبّذ كثيرا وزن "فعيلو"، هكذا صار عبد الحميد
الوزن أدخلنا السي في محمد بعدما الكريم كريمو، ورحمة رحيمو، ولكي يستقيم
فهمت؟ أو أعيد الشرح ..قزّبنا نصف محمّد فأصبح اسمي السيمو.

ـــ تابع.. تابع.. قال الصوت السلطوي.
ينصتون لكلامي بما من أحلى وأنشى الأشياء التي لاحظتها في الفقيه وغيره ممن
الطاولة، ربّما فيهم الصوت السلطوي الذي كان يرسل إيس إميسات من تحت
السمك الشهير، لبائعة هوى في حومة الشياطين يطلب منها أن تنتظره في مطعم
ومغزله قد ضاع هو أنك على يقين أنهم لم يفقهوا شيئا مما تقول وأن خيط حديثك
يحركون منهم، ورغم ذلك يستمرون في الاستماع إليك وكأن شيئا لم يكن،
في رؤوسهم مثل مجموعة الكلاب البلاستيكية التي وضعها خوسي بن السيكي
قال مؤخرة سيارته والتي عندما تتحرك السيارة تبدأ هي الأخرى تحرّك رؤوسها،
فرس عنترة مرّة وكان قد اشتكى لراكبه منحنحا ولكن راكبه لم يفهمه:

لو كان يعلم ما لمحاورة اشتكى ولو كان يعلم الكلام كان مكلمي

ـــ إذن اسمك السيد محمد.. قال الفقيه.
هل فهمت؟ ..ـــ لا، أنا اسمي السيمو أيها الفقيه، لمن تحكي زابورك يا داود
بيننا، ربما السي... مو! أما السي محمد أتركها للفقهاء مثلك. ساد صمت خفيف
لأنني كنت أبحث فيه عن رأس خيط الكلام.
ـــ أنت متأكّد أن هناك نساء جميلات في الجنّة؟ قلت للفقيه.
ـــ أجمل مما تتصور يا ابني وبكثير.

الحومة ــ أنا أعرف في حومتي كثيرا من الغزالات الجميلات جدا، الكل في
يعشقهن، حتى أن رجالهن أجبروهن على وضع الحجاب. الكل يغطي سلعته
ويعشق سلعة الآخرين.. كلهم هكذا.. أعرف الكثير منهم.. كانوا يسكرون معي
بيران المدينة، وما أكثرها، منها الشعبية كالثقب في الحائط والهاشمي، في
والكراج والحمراء، ومنها الراقية أو شبه الراقية كنغريسكو وكاسا إسبانيا
الفضولي). والبيطانكا (إن الكاتب الأمّي كان يتردد على كل هذه الأماكن. يقول
الولدان.. إضافة على أنهم كلهم يتحشّشون ويشمون الغبرة.. وأكثرهم يعشقون
ملكة بريطانيا، (أول بار للمثليين عرفه العالم، دشّن في مدينتنا، كان لأحد رعايا
كنت لا أعرفك أضاف الفضولي) أعرفهم مثلما أعرفك. يعني لا أعرفهم مثلما
الآن، لأنني من قبل.. لأنني فعلا لا أعرفك.. ولكن أعرفهم مثلما أعرفك
بالكلام في أصبحت الآن أعرفك.. غريب، لقد لاحظت أنك بمجرد أن تتلاعب
ربما حضرة الفقيان تأخذهم الدوخة. هل فهمت؟ جحظت عينا الفقيه واندهش،
تابعت.. ..علامات مرض جديد اسمه الفلسفة، لم أتركه يسأل. بداية الدكتاتورية
زوجها إمام مرّة نظرت إليّ خناتة بنت حدّهوم نظرة غريبة، كان ذلك بعد موت
وأتذكّر أن مسجد الحومة بشهرين، كان المسجد هو الآخر عبارة عن برّاكة،
شخصا جدّي جمع سكان الحومة، وأخبرهم أنه رأى في المنام خيرا وسلاما،
ممرّضا بلباس كله أبيض، حتى رزّته وبلغته كانتا بيضاويتين.. سأله أبي إن كان
وتخرج يعمل في سبيطار (مستشفى) القرطبي الذي كنت تدخله حيّا شبه معافى
آمرا منه مجبّذا كحبة عنب في محمل. سبّ جدي أبي كالعادة وتابع محاضرته
سكان الحومة، كما أمره صاحب اللباس الأبيض الذي حضره في المنام، ببناء
صومعة من القصدير، وذلك حسب دفتر الحمولات، ووضع عليها علما من الكتان
البياض. الأبيض الذي أصبح مع مرور الأيام يميل لونه إلى السواد أكثر منه إلى
اليوم من طلبت مني خناتة بنت حدّهوم في البداية أن آتي لها بالماء مرة في
وصلها لا الماء سبيلة الحومة وأنها ستدفع، لأن حومتنا في تلك الفترة لم يكن قد
سبيلتان: الأولى الصالح للشرب، ولا الكهرباء الصالح للإضاءة. كانت هناك
اليهود، قرب جامع النصارى، في اتجاه مدرسة الطليان، قريبة من مدرسة
(ضحكت لمّا سمعت لأول مرّة بطلا في مسلسل مصري يقول للبطلة، وكانا

يسكنان مثلنا في حومة مثل حومتنا خائبة وخنزة مليئة بالوسخ والمسخ يسمونها
:(الحارة: شو رأيك أعزمك على كأس مية ساقعة من الحنفية

على شاطئ الوادي نظرت حمامة أطالت عليّ حسرتي والتندم

التي كانت قد جاءت تسقي حاولت مرّة أن أقلد المشهد بحضور لطيفة بنت الفحام
ضربة صاعقة، لأهل الشرق الماء من سبيلة الحومة، والتي كنت مزعوطا فيها،
:نفس العبارة: أحبّك موت

وقولوا لها يا منية النفس إنني قتيل الهوى والعشق لو كنت تعلمي

المزيفة التي تعلمناها بين قهرتُ الخجل والحشومة وحدير العينين وكل الأشياء
يتصبب عرقا (تبغي نعرضك ذوينا وفي الكتّاب والمدارس، قلت لها ووجهي
أتت وهي تتمتم: أظن تشرب معاي كأس ماء بارد ديال سبيلة)، ولّت من حيث
مَن يشوفك حتى ..أن الحشيش بدأ يلعب برأسك، أو أن مخّك عشّش فيه الدود
والدمير وليس ليعترض الشوفة أيها الوغد الوقح يا سقيط اللسان.. الرجل للخدمة
رأسه، ولو كانت فيك لبنات الناس في السقاية.. لو كان الخوخ يداوي لو داوى
وذهبت تبني أية علامة ربح لشمّرت على ذراعيك، مثل ما فعل السيكي،
بالغمزة والحمار الطرقات مثل إخوتك.. الحاجة الغالية لا تصلها بمال، الحرّ
أنا هي وسأبقى دائما بالنغزة، افهم المعنى وكن فائقا، انظر إلي، انظر كما تشاء،
أسنان له.. لو كنت رجلا أنا.. لكن يا خسارة على من أعطاه الله الفول وهو لا
سطلاها وولت تجري باكية فعلا ورّيني شطارتك.. لكنك ثعلب بدون مخّ.. تركت
البراكة مرتديا لحية طويلة حمراء، في اتجاه برّاكتها. كان أبوها واقفا أمام باب
النار من كثرة الاحمرار. برمّ ينظر إلي بعينين شريرتين يخرج منهما لهيب
:وجهه وقال باشمئزاز

..ــــ تفو

لعن الله الخجل والحشومة والرقيب والحراز وكاغط الصداق والجيران:

مال الحرّاز الدّامي ما يثيق بِيَّ هيهات
غير حاضي الأوقات، في ثيابه مسلم فعايله رومية
مال الحراز قضيب البان ما يجاور عمره جيران
عاسّ على القتلة مشعور
جامع أطرافه ما يندى، ولا نظرت بحاله جلدة، بين لحظ عيونه عقدة
وقت ما نجيه نصيبه عبوس آ لطيف آ لطيف واش نعمل واش المعمول

وسبّها ترحبّ بي وتقول مرحبا كان قلبها ينخره الأسى، كانت وكأنها في شتمها السوداء والبراقع الظاهرة والخفية، بك يا فارس الأحلام في بلد الظلام والغيوم وقت الحرّ، لقد نشفت دموعي من مرحبا بك يا هوائي البحري، يا مطري في إلى قلبك، ولكن ضمّني، زمّلني كثرة الانتظار، خذني، ضُمّني بين ذراعيك أو جُملا لا معنى لها. ينقصني الفعل بكل المعاني وفي كل المعاني، لأني أصبحت تنقصني قصتي مع حبيبي، تنقصني والفاعل والمفعول، ينقصني اللمس والهمس، الغياب والانتظار وحين العودة مشاجراتي الغرامية، وحنيني لحبيبي، ينقصني أفهم لغز لطيفة بنت الفحام إلا (أيها القارئ المحترم.. ليكن في علمك أنني لم تزورني مؤخرا في السجن العسكري مع مؤخرا، بعدما فات الأوان، عندما جاءت نفسها رسميا محاميتي دون أية استشارة إحدى بناتها الأستاذة شامة التي عينت).

وعذبتني، كم من ليال ـــ علاش عليك هذا الشيء، قالت لي لطيفة، ضيعت حياتك آخر، كم كنت أحبّ ذكاءك قضيتها أبكي لي ولك، لكنك ذهبت في تيه وأنا في تيه حزنت على ما ضاع مني الحيواني، تفهم من غير تفكير، وتحبّ من غير كلام، والإشارة والمعنى وحَبّ وأعيش في حزن الحاضر والقادم. لقد كلمتك باللغز أنواعها. لماذا لم ترد علي الفهامة، لكنك قضيت عمرك تهوى الإحباطات بشتى كنت مثل الحمار أمام يوم شتمتك عند السقاية؟ ظننتك فهمت المعنى، لكنك كنت مثل أبيك، صاحب السكنجبير، ولّيت هاربا كثعلب ضاع منه ذكاؤه. ليتك المعنى.

ـــ خالتي الكبيرة هي السبب. أجبتها

ـــ وما شأن خالتك الكبيرة هنا؟ سألت.

سؤالها: كيف أجيبك والأشياء سكتّ. لم أجبها. أتذكر أنني كل ما قلته هاربا من
وبعد ولادتك. أأقول لك أن أبانا فهمت للتو أنها مغشوشة من البداية. قبل وأثناء
لأنه كان أذكى مني، لم أفهمه إلا الآن. الأول كان أكبر الخطائين. إن حبّي سبقني
وهو ينظر إلى القطار الذي شرع في استيقظت متأخرا، كمن وصل إلى المحطة
التحرك، وما الحاجة إلى الفهم الآن.

نظرت إلى نفس النظرة التي ألفتها وهي تسبني في سبيلة.
وبدون ـــ هذه بنتي شامة. محامية تسكن في العاصمة. قررت أن تدافع عنك
الحكاية من مقابل. إنها تعرف كل شيء عنك. الكبيرة والصغيرة، لقد حكيت لها
البداية، لما كنا في باطيو بينطو.

الفطنة، يا ليتني ما التقيت بغزالي اليوم وعذبني حبيب القلب. طرشتني
رأسها.. وتمشي السفن بما لا استيقظت.. لماذا تمشي الأشياء الجميلة دائما على
ونار غرامي.. ليتها أطالت تشتهي الرياح. ارحميني يا راحة قلبي من عذابي
أكن قد أكلت حبّ الفهامة مثل الشتم إلى هذا اليوم، لتعبر عن كل آلامها. لكن لم
إن الرقيب يحوم بطيفه من حومتي .اليوم، أما هي فقد كان لها الحراز بالمرصاد
عثمان في قاع الجزء الغربي من هنا في قرن القارة إلى أقصى حي في الشيخ
القارة الأخرى. إنه قامع الأصوات.

هذا الصمت الأبدي.. وعلى وسكتت لطيفة بنت الفحام عن الكلام المباح.. قهرها
الحاضر ليكتمل الفيلم طاولة المونتاج أعادت ربط شريط الماضي بشريط.
ذهب عني النعاس، أفاقت عيناي وتحررت من سباتها:

فأيقنت أن الطرف (كان قد) قال مرحبا
وأهلاً وسهلاً بالحبيب المتيم
ألا فاسقني كاسات (ماء) وغن لي
(بذكر (لطيفة) والرباب و(سبيلة

الذي عزم نفسه من غير الكلام الآتي لا علاقة لي به إنه نابع عن الشخص)
رفوا. أضيف إلى أنني عزومة، يؤكد أن هذا الذي فعلته بهذين البيتين يسمّى
فمن الآن فصاعدا لن قرّرت أن أقاطع كلام ضيفي الثقيل الذي يحشو به سيرتي،
إذا ما حصل أشير إلى كلامه، أظنكم تستطيعون فرزه عن كلامي في حالة
.(وتطفّل من غير إذن

حومة درادب وتلوي في اتجاه أما سبيلة الثانية فيلزمك أن تذهب إلى غاية بداية
درادب، لأننا كنا في صراع طريق سبيلة الجماعة، وأنا شخصيا كنت أكره حومة
إستراتيجية لا يتّسع وحرب دائمة مع أولاد تلك الحومة وذلك لأسباب جيو ــ
يمكن قوله هو إن أولاد الوقت لذكرها وإلا سندخل في اعتبارات أخرى، كلّ ما
والياجور والإسمنت، تلك الحوم وآباؤهم كانوا يسكنون منازل مبنية بالحديد
المجتمع، مثلنا مثل سرّاق وكانوا يعتبرون أهل براريك باطيو بينطو عالة على
السائحة.. وغيرها من الأشياء الزيت (الصراصير) والفئران والجرذان والكلاب
مثل كرهنا، كان يقول التي تكرهونها وتنغص عيشكم. كرههم ساذج وبهيمي
لأنه قريب من أبي.. كنت أفضل أن أستقي الماء من قرب جامع النصارى،
بحاجة إلى سبيلة، باطيو بينطو ولا يسكن بجانبه إلا النصارى الذين لم يكونوا
التليفون، كما كان لأن عماراتهم كان فيها الماء الصالح للشرب والكهرباء وحتى
لجدّتي، مدير بنك بحوزة بعضهم التليفزيون، منهم، هكذا سمعت أمّي تعدّهم
سبيطار للأجانب من اسبانيول ونائب مدير سبيطار اسبانيول (لقد تم شرح كلمة
لا تفقهونها، ما قبل، ليس لدي متسع من الوقت لأشرح لكم كل الكلمات التي
وأصحاب لغة القواميس عليكم إلا أن تتعلموا لغتي التي يتحاشاها أهل البديع
يقول أبي) ومدير مدرسة الجوفاء التي لا تصلح إلا لتحنيط المومياء مثلما كان
الإسبانية إيبيريا ومدير اسبانيول الكبيرة ريمون إيكاخال ومدير شركة الطيران
التي تعبر البوغاز يوميا في شركة طرانسميديطيرانيا السبنيولية صاحبة البواخر
مديرا لها فيما بعد، أما اتجاه الضفة الأخرى، والتي أصبح خوسي بن السيكي
أمي الذي سأتحدث عنه نحن فكانت عندنا باخرة واحدة لها نفس خصائص سطل
باخرة ثانية تحمل اسم عاجلا، اسمها "ابن بطوطة"، وعندما تحسنت حالتنا أضفنا

كانت الباخرتان، حسب رحالة !"بسم الله"، لن أقول لكم ما كانت تقلّه على ظهرها
البواخر التي لم يحرقها طارق ابن عاش فترة بين الضفتين، والله أعلم، من بقايا
.زياد

يسكنون كلّهم في نفس أمي كانت تعمل خدّامة عندهم جميعا، لأنهم كانوا
الكازاوي مرّة إنكم تسكنون العمارات المجاورة لجامع النصارى، قال لي صديقي
برمّته اسمه إيبيريا، كان في إسبانيا، الكل إسباني حولكم، حتى أن الحي
من بئر حفرتها البلدية، كان باستطاعتنا نحن سكان الشابولات والبراريك السقاية
مواعينهم ويروون منها يستعملها مزارعو ورعيان الحقول المجاورة لغسل
لا دلو ولا شريط.. أو بهائمهم وكلابهم ومواشيهم من معز وخرفان، لم يكن لدي
الخالص، لأن هناك سطولا بالأحرى كان لدينا سطلان حقيقيان من البلاستيك
السطلان الرئيسيان مزورة مصنوعة من البيدونات والعجلات المطاطية، كانا
أحدهما على حرمة اللذان يتعايشان في سلم، ولكن كل في منطقته لا يعتدي
النوالة كما كانت تسميها أم !الآخر، يتقاسمان فضاء شبولتنا بتقنية عالية، شبولتنا
براكة حقيقية بكل معايير الدابة، كانت قد أصبحت منذ مدة لا يستهان بها
رأيت فيها النور، ولأنها كانت البراريك، لكني أحن دائما إلى اسم الشابولة لأنني
دخلها القصدير والياجور بعد، يقال إن مبنية بالخشب وعيدان الأشجار، لم يكن قد
بالإسمنت والقصدير، وبدأوا يبنون بالخشب، في الضفة الأخرى تخلوا عن البناء
كان السطل الأول مخصوصا بجدّي، يشرب يسمونه بناء بيئيا يعني طبيعيا،
قرّة عينه، لأننا بالنسبة له كنا تقريبا كلنا ويتوضأ منه، لا يتركه دقيقة، وكأنّه
كان بالنسبة له في قمة النجاسة، والثاني كانت نجسين، ليس في مستوى أبي الذي
ولغسيل المواعن ولتنظيف البراكة ولها فيه مآرب أمي تستعمله للسقاية وللشرب
لسطل أمي ثلاث خصائص: الوحدانية والقدم أخرى، مثل عصا جدّي.. كان
.والبقاء

!ـــ استغفر الله يا ابني
.ـــ كيف أستغفر الله.. إنها الحقيقة يا مولاي.. حقيقة تخلع السبع وباقي الوحوش
ـــ كنت تحدثني عن خناتة بنت حدّهوم.. أليس كذلك؟

ــ هل تعرفها؟

فقيه في ــ لا.. حاشا لله.. أعرف زوجها المرحوم.. كنا مشارطين معا عند
العلوم، إحدى قبائل بني مكسر. كان أكبرنا سنّا وأكثرنا علما رحمه الله، بحر
.سنا (كأنه اخترع لست أدري ماذا).. قيل والله أعلم إن زوجته كانت تصغره
ــ تريد أن تلتقط الزؤان يا عمّي الفقيه. ومتى كان الفقيان يبحثون في سير أعلام
النساء الهجّالات؟

.ــ حاشا لله

أسقيه لها، لكن بعد ــ ظننتها أنها ستدفع لي قليلا من الفلوس مقابل الماء الذي
أنني سقيت لها ماء خمس أو ستّ سفرات لاحظت أنها لم تدفع، فقلت ما مفاده
سفرة واحدة من حق الميت المرحوم زوجها، ولكن انطلاقا من اليوم لن ترى
صادرتُ فيه الماء، الماء إلا إذا دفعت.. دعتني إلى براكتها في نفس اليوم الذي
:ظننتها أنها ستدفع. قالت لي

عيني فيك يا ــ لا تسألني حلْوف، أنا هكذا وهذا طبعي، أقول لك الذي كان،
يكن قادرا السيمو من قبل أن يموت المرحوم.. أنت تعرف أنه كان مسنّا.. ولم
وقتها على ممارسة الأشياء التي على بالك، ولكنني لم أستطع أن أصرح لك
يبغيني قلبك بذلك.. فها أنا اليوم وحيدة لا من يحميني ولا من يسقيني.. وإذا ما لا
أنّك وسيم؟ لله لا ترحمني. نظرت إليّ وعينيها يغليان، ثم أضافت: هل تعرف
...أحسست بز

.ــ احترم أيها الحمار. قال الصوت السلطوي

:تابعت

تعني "ــ سامحني.. أحسست بعضوي يتحرك في عرينه.. (وكأن كلمة "عضو
شيئا آخر غير الذي في بالكم. ذكرني هذا بقصة الجبلي الذي حضر كشاهد في
قضية هتك أحد الشيوخ عرض قاصر.. فسأله القاضي: ماذا رأيت؟ قال الجبلي:
ما رأيت أن شيخ القبيلة أخرج زبـــ... أوقفه القاضي على التوّ صارخا كلّ
السلطوية: تكلّم بأدب أيها البغل، إنك في مكان موقّر أيها الحمار. كانت بلهجته
علامات الوقار بادية على القاضي. قال الجبلي: أخرج أدبه وأدخله في أدبها
وأدّبها تأديبا ليس مثله أدب). حاولت خناتة أن تنقض علي وجدتني قفزت قفزتين

رعب الأولى من البيت إلى الفناء والثانية من الفناء إلى رأس الحومة.. دخلني شديد.

.ـــ هكذا يكون الأتقياء يا ابني

يعلمني أحد كيف ـــ أي أتقياء.. يا مولاي الفقيه.. لم أستطع مواجهتها ـــ.. لم لما حكيت القصة ..أباشر امرأة وخصوصا امرأة تكبرك بعشر سنوات على الأقلّ كذب، وكل ما لأولاد الحومة انشقوا مذهبين منهم من رأى في روايتي كذبا في وأن أبين أردته من ذلك هو أن أعتدي على حرمة رجل ورع ذهب لملاقاة ربّه، حال كل ذكور دروعي بأن لي في النيك شأنا وباعا، ومذهب أيدني مبيّنا أن هذه وأمرّن الحومة وفحولها ونصحني بأن أطلب خدمة قحبة تعلّمني فنّ النياكة أمي آثار قضيبي حتى أستطيع مواجهة العدو في المعارك القادمة. التقطت آذان البوليس أثناء الحادثة، استدعتني وقامت باستنطاقي بنفس الطريقة التي قام بها بين أمي والبوليس التحقيق معي في قضية ستعرفونها فيما بعد، الاختلاف الوحيد وجنتي، بينما كان هو أن أمي كانت تعلقني من أذني مثل خالتي الكبيرة وتقرفص رجلي، وفي البوليس يبصق على وجهي ويطرش وجنتي وقفاي وأنا معلق من زغبة، حالات أخرى عندما يكون البوليس أقل قسوة، ينتف زغب لحيتي زغبة وكأنك ويخلع عني ملابسي ويجعلني أمتد على بلاط من الرخام الرخيص البارد أن ممتد على لوح ثلج كالذي كان يبيعه السيكي طالبا مني بكل أدب واحترام الزجاجية، ألحس البلاط بلسانك، بينما يدخلون قرعة (قارورة للأجانب) كوكاكولا أحسن متوسطة أو كبيرة الحجم، حسب الزبائن، في مؤخرتك لتمثل صورة الكلب التفاصيل في تمثيل، طالبتني أمي بكل التفاصيل، قلت لها عيب، كيف أجرؤ على سنة الله حضرة أمي، نطق جدّي مقرا أنه لا حياء في الدين، وأن الزواج على أمي وعبرها ورسوله يفتح أبواب الجنة، لاسيما الزواج من امرأة أرملة. كانت ما جدّي يريدان أن يضربا دجاجتين بحجر واحد، أن يتخلصا مني ومن كل يترتب عن ذلك، من إقامة وسكن وأكل ومصروف الحلال والحرام، وأنها صفقة رابحة إذ سيستفيدان من القليل الذي تركه المرحوم لخناتة بنت حدّهوم، إلا أن القليل في حومتنا كثير نادر. شهور بعد ذلك حصلت على قطعة نقدية واتجهت إحدى دور القحاب في شارع موسى بن نصير، طرقت الباب فإذا بخناتة تفتح إلى

الباب، لم أستطع الهروب هذه المرة، حصلت في المصيدة مثلما تحصل عيشة البرقش أو الشرشور بالنسبة الأجانب) (كثيرة هي الأسماء المركبة من) قرعة وشيء آخر، عيشة قنديشة، عيشة البحرية، عيشة الدويبة، عيشة أم عيشة أعرف لماذا بالضبط هذا الاسم، تساءل ضيفي المتطفل، وكأنه سيجد النواجر، لا سيرتي هذه!) وعيشة قرعة هذه، فصيلة من الطيور المهاجرة، تنزل الجواب في حومتنا كل سنة مع بداية فصل الربيع، وكان أولاد الحي ضيفة علينا في الحديدية ويبيعونها للنصارى واليهود وسكان الأحياء يصطادونها بالمصائد الراقية.

القطعة النقدية.. أخبرنا نترتني خناتة من ساعدي وغلّقت الأبواب.. أخذت مني هجرت الحومة فجأة جدّي، شهورا بعد موت زوجها أن خناتة بنت حدّهوم البريد للأجانب) وانقطعت أخبارها، من دون أن يعلم ذلك الكارطيرو (ساعي نصارى العمارات الذي كان يقضي معها في بيتها ساعات طوال، إلى درجة أن لنائب البريد لتأخر المجاورة لباطيو بينطو وبعض نصارى الباطيو قدموا شكاية الموعد، وذلك يسبب لهم هذا الأخير، لا ليس النائب بل البريد، عن الوصول في والاجتماعية.. صادفت مرة الكارطيرو متاعب بالنسبة لأعمالهم الإدارية والمالية البوليس والمحاكم، لأن الرسائل والبطاقات يوزع راجلا الفاتورات واستدعاءات منعدمة في حومتنا. استغربت، لأنه عادة كان يأتي البريدية والجرائد كانت شبه موبيليط يضع عليها حقيبته الجلدية الممتلئة بالرسائل راكبا دراجة نارية من نوع الأخرى، فهمت إثرها أن النائب الإقليمي للبريد وبّخه وحكم وغيرها من الأوراق التأديبي أن يرجع الدراجة النارية إلى كراج البلدية وكذلك ساروت عليه المجلس باب الكراج وأصبح بذلك من صنف سعاة البريد المشاة بعدما أن كان من ((مفتاح البريد ذوي الدراجات النارية. قال بعضهم وكلهم من أصدقاء جدّي، صنف سعاة للكارطيرو، كان بسبب اعتدائه على حرمة شيخ ورع لم يفت على إن ما حصل وقيل والله أعلم، من مصدر غير موثوق به، روجته إحدى .وفاته رمضانين زوجة هذا الأخير التي كانت من أجمل نساء الحومة، لما جارات الكارطيرو، أن خناتة، قرّرت انتقاما منه أن تصبح معشوقة النائب علمت قصة زوجها مع

المصدر نفسه، أنها رحلت عن زوجها وتزوجها النائب الإقليمي، ودائما حسب
أوطيلات المدينة الفخمة، لأنه، حسب ما يروى، عن وأقاما حفلة زواج في إحدى
مباشرة، مصدرها جارة أخرى، كان نائبنا الإقليمي مصادر هي الأخرى غير
والتوكال عبارة عن وجبة سرّية تخلطها المرأة في) مزعوطا فيها زعطة التوكال
وتقدّمها للرجل دون أن يشعر، علمت فيما بعد لماذا كان الغالب بالأكلة الرئيسية
الطعام الذي تحضره أمي أو جدّتي قبل أن يمدّ الجميع يده، أبي يرفض أن يأكل
يضع يده في الطبسيل، أما سرّ التوكال لا يعلمه إلا بعض كان دائما آخر من
الدمياطي وحمزة ويعرفون ضرب خيط الزيناتي، أو أولائك الفقيان الذي قرأوا
اليهود وأهل سوس أو بعض العصاميين مثل جدّي)، الذين أخذوا السر عن
الكارطيرو كانت عشيقته، قبل أن يستلم ويضيف نفس المصدر أن زوجة
له المأمورية للحصول على ساعي الكارطيرو وظيفته، وأنه هو الذي سهل
النعناع بقي الكارطيرو يدا في الأمام البريد. مجمل القول كما قالت طيطم بائعة
التوأمين. وبما أن آخر الكلام يعود دائما إلى ويدا في الوراء، تركته موحلا بابنيه
ربما عن طريق أحد الأولياء الصالحين، أن توأمي جدّي الذي قال إنه أوحي إليه،
يدخل الشك والارتياب السيد نائب البريد المحترم.. ساعي البريد يشبهان إلا حد
واختفى معها ظلها. فمنهم من قال إنه صادفها في جبل غابت خناتة بنت حدّهوم
أحد الفنادق الفخمة، ومنهم من قال إنها تشتغل في طارق تشتغل منظفة مراحيض
وسبتة، ومنهم من قال بأنها تزوجت من ريفي متزمّت الكونطرابندو بين الفنيدق
بألمانيا، ومنهم من قال إن رجل أعمال خليجي، من رجال يرتدي لحية يقيم
.لهم إلا الزواج، وقع في شرك غرامها فرحلت معه الأعمال الذين لا عمل

فقد تقوقع من كثرة كانت أول مرة تلمس فيه يداي جسد امرأة.. أما قضيبي
صاحبة هذه الخوف، من كثرة ما كنت أخشى أي يعضني فرجها.. خالتي هي
عندما الصورة الوحشية للفرج، لم أجرؤ على قول ذلك للطيفة بنت الفحام،
أرافق زارتني لأول مرّة في السجن، والسبب في خوفي هذا هو أنني أردت أن
ولم أميّ مرة، كالعادة إلى الحمّام، فرفضت ذلك مبرّرة أنني قد أصبحت رجلا
تقدير بين يعد لائقا أن أرافقها إلى حمام النساء، كان عمري آنذاك، على أكثر

القانوني أربع وخمس سنوات، لأنني لم أكن أذهب بعد إلى المدرسة، لأن السن للتمدرس كان سبع سنوات، أضافت أمي أنني إذا أردت، من الآن فصاعدا، يكن الذهاب إلى الحمام، ما علي إلا أن أذهب مع جدّي إلى حمام الرجال، أبي لم يذهب إلى الحمام، كان أبي في عيني جدّي شخصا خنزا ووسخا، وكانت الحمامات في عيني أبي، وبالخصوص حمامات الأحياء الشعبية التي لا ترى أبدا وحيث يختلط الوسخ بالصابون البلدي والغاسول وقشرة الرأس وقشرة النور وبقايا الجلود ورؤوس الدمامل وجثث شفرة السبع مينورا والقمل والتونيا الحكّة الإبطين وكذلك زغب اللحيتين الفوقية والتحتية وما تبقى من الماء السائل، وزغب حمامات في قمة القذارة. بدأت أبكي وأصيح وأركل كل شيء برجلي وأبصق من يمرّ حتى انقلبت الدار قيامة، وصلت أثناءها خالتي الكبيرة، سألت على كل أسباب هذا الهرج والمرج، حكت جدّتي القصّة بكاملها وأضافت أشياء لا عن لها بالواقع، من أن الجن والعفاريت سكنوني، وربما كان قد وقع ذلك مرّة أساس عندما ذهبت إلى الكنيف (المرحاض) في الليل، لأن أبي كان قد نسي أن يفرغ الكريزي (نوع من قطران كيماوي) في الكنيف حسب تعليمات أمي وذلك لسبب أنه كان كالعادة سكران، أن كل أنواع الجان الأبيض والأزرق والأحمر بسيط العفاريت تعاف رائحة الكريزي، فمنذ ذلك اليوم لاحظت جدّتي تغيرا في وكذلك وهذا طبيعي لأنهم هم الذين يهيجونني ويتكلمون باسمي، وأنه عليهم أن تصرفي، يزوّروني مجموعة من السادات، ابتداء بسيدي بوعرّاقية، وإن لم يستطع خلاصي من السكان القاطنين داخلي، زوّروني سادات آخرين، كسيدي احساين وسيدي وسيدي أحمد بو قجّة ولالاّ جميلة، أو أن يطلبوا من جدّي أن يتوسط لي هدّي على موعد مع فقيه دار زهيرو صديق طفولته الذي، حسب ما يروى، للحصول هذا الشأن له كرامات في.

الصالحين، لأن البركة تعطى كان هذا قبل أن يأخذ جدّي البركة من أحد الأولياء اليانصيب)، أخذتني خالتي الكبيرة من) عبر طريقين إما بالوراثة أو باللوطوريا أنفها وعيناي هي الأخرى في نحر أنفها، أذني ورفعتني حتى صار أنفي في نحر حسب أبي، سمعتها تصرخ في وجهي: لأنها كان لها أنف طويل كأنف الشيطان

لباسهن، يعني يكن عاريات مزبّطات، النساء عندما يكنّ في الحمام يخلعن عنهن
وتعرف ماذا يحصل عندما يرى يكون همّهنّ، أي فروجهن من دون سليبات
تعضّه. ضحك مني أولاد فروجهن ذكرا في مثل سنك، تجري الفروج وراءه لكي
تدريبية فاشلة.. قررت الحومة حين حكيت لهم دورتي التدريبية.. لقد كانت دورة
العادة السرية التي لا تكلفنا إثرها أن ألتجئ، مثل باقي ذكور الحومة وفحولها إلى
.أدنى مشقة إضافة إلى أنها بدون مقابل
والإيمان، وأستغفر الله ــ أعوذ بالله يا ولدي من العادة السرية، إنها تقلّل النظر
حاشا لله أن يعادلن ..لي ولك من هؤلاء المومسات، إنهن حطب جهنم يا ابني
كجمال هؤلاء الباغيات زغبة، بل زغيبة، من جمال الحور الصافي، جمالهن ليس
ابني؟ استمع إلى قول ابن اللواتي يخنّ بعولهن خفية وعلنا، أين هنّ من الحور يا
أن يستقيم لي شيء آخر، القيم رحمه الله حتى يستقيم لك المعنى (كنت أتمنى
:بالنسبة للحور احترم أيها الوغد، قال الصوت السلطوي) وتعرف قيمتهن

لا تسبينّك صورة من تحتها الداء الدوي تبوء بالخسران
قبحت خلائقها وقبح فعلها شيطانة في صورة الإنسان
تنقاد للأنذال والأرذال هم أكفاؤها من دون ذي الإحسان

:لا يغريك جمالهن يا ابني.. فكلّهن باغيات خائنات، قال رحمه الله
أما جميلات الوجوه فخائنات بعولهن وهن للأخدان

التي مررت منها كانت آية لقد ابتلاك ربّك ليمتحنك، إن كل البلاوي والمصائب
هيّأ لعباده المحصنين أجمل مما ودليلا قاطعا على أنك من الذين اختارهم الله وقد
..(يمكن أن يتصوره عقلك (وكأن لي عقل

إن كان قد أعياك خود مثل ما تبغي ولم تظفر إلى ذا الآن
فاخطب من الرحمن خودا ثم قدم مهرها ما دمت ذا إمكان
ذاك النكاح عليك أيسر أن يكن لك نسبة للعلم والإيمان

الله تنتظرك. (سيكون ما عليك إلا أن تخطبها وتدفع المهر وستجدها إن شاء
مني أن أشتري السمك في المهر غاليا، والذي فهمته من بعد هو أن الفقيه طلب

.(البحر وفعلت
(ــ كم؟ (أكرّر، سيكون الثمن غاليا
..(لم يجبني، (كأنه نسي حضوري
بل تجدهن ينتظرنك كلّهن لك سامعات طائعات تتمتع بهن أبد الآبدين، يعاملنك ...
:مثل السلطان

وإذا انحدرت رأيت أمرا هائلا ما للصفات عليه من سلطان
لا الحيض يغشاه ولا بول ولا شيء من الآفات في النسوان
فخذان قد جفا به حرسا له فجنا به في عزة وصيان
قاما بخدمته هو السلطان بينهما وحق طاعة السلطان
وهو المطاع أمره لا ينثني عنه ولا هو عنده بجبان
وجماعها فهو الشفا لصبها فالصبّ منه ليس بالضجران
وإذا يجامعها تعود كما أتت بكرا بغير دم ولا نقصان
فهو لشهي وعضوه لا ينثني جاء الحديث بذا بلا نكران

تغمرني كل مرة مارست عاد إلى رشده، وكانت قد غمرته نشوة مثل تلك التي
صديقي الدابة، على ما فيها العادة السرية في الحمام، أو مثل تلك التي غمرت
ظهر حمارة تركها لهما يحكى، الذي كان يساعد أمه طيطم في بيع النعناع على
تلك الحمارة كانت سبب أبوه من بين الأشياء القليلة التي ورثوها عنه، حتى أن
الدابة طالب بحقه في خلافات كادت أن تشق عصا قبيلة بني مسكين، لأن عم
الدّوار حتى يستفيد منها الورث، وقال إنه كان يجب على الحمارة أن تبقى في
أشياء لا تصل إلى ما يمكن أن الجميع، وإن ترحيلها إلى المدينة واستعمالها في
يقبله عقل عاقل، ولا وقف ناقل، تتحمله الحمارة من الأعباء فرط وتفريط، لا
كان له رأي آخر، وهو أن رحيل كان عمّ الدابة عدولا. إلا أن خال الدابة
أحسن من تلك التي تعيشها الحمارة إلى المدينة سيجعلها تعيش في ظروف
يستفيدان من البهيمة مدة أطول، الحمير عادة في القرى، وهذا سيجعل أخته وابنها
الحظ، تزوجت من حمار متمدّن وعبرهما قبيلة بني مسكين، وإن ساعد البهيمة
وتتكاثر الحمير، يستغلونها في يجعلها تخلّف حميرا صغيرة قمورة حلوة كثير،
مسكين أغنياء. كان خال الدابة يبيع البناء والفلاحة والنقل والتجارة، ويصبح بني

واحتد الخلاف بين أهل أب الدابة .الكيف في مقهى صغير قرب رحبة عيساوة
الأيام على صياح وعويل سبّبهما وأهل أمه، حتى أن حومتنا استيقظت في أحد
تدخّل إثرها المقدم وبعده القايد والباشا حرب الحمارة الغبراء ذات اللون الترابي،
حتى يتمّ النظر في القضية، وتمّ تسليمها أخيرا وتمّ حجز الغبراء أربعين يوما،
الدابّة، بناء على قرار يستند إلى المسطرة والمادة لطيطم بائعة النعناع وابنها
على أنه في إطار التطور الذي تشهده المدينة يمنع منعا والبنود التي تؤكد كلها
والحمير، لأن المدينة في حاجة ماسة إلى هذه البهائم، كان هذا كليا تصدير البغال
.مباشر، يعترف بمدنية البهائم أول قانون غير

وجهه، سأله أولاد الحومة عن خرج الدابة، فيما يحكى، ذلك اليوم والبشاشة تغمر
غاية السعادة لأن الدابة غجعت سرّ بشاشته غير المعتادة هذه، أجاب إنه سعيد
ومن يومها صار اسمه المتداول .((أي رجعت، لأن الدابة كان ينطق الراء غينا
سقطت غجعت ولم يعد يتذكر بين أهل الحومة الدابة غجعت. ومع مرور الأيام
وكأن الدابة التي كانت على وشك أهل الحومة إلا الدابّة. كان الدابة سعيدا بلقبه،
بأحسن أوراق البروق الضياع رجعت وسكنته، أصبحت جزءا منه، يطعمها
وفي بعض الأحيان والتبن النقي، يمشط ظهرها بمشط من حديد يشبه القرشال،
أما يوم الأحد فكان لما تكون الحالة ميسورة يعطيها حفنة صغيرة من سكرّ سنيدة،
البلدية لتستحم. حاولت أن يرافقها، بعد صلاة العصر، إلى البئر التي حفرتها
أبدا أحدا في حومتنا ينطق أو أتذكّر اسمه الحقيقي، لكني تيقنت أني لم أسمع
اسما لا يعرفه إلا هو. كان الدابة يناديه باسمه الحقيقي. ما أجمل إنسان يحمل
العواشر (الأعياد الدينية، كالمولد والنسخة يغيّر مهنته كل يوم جمعة وفي أيام
نعناع يتحول إلى بائع ريحان، لم يكن يرافق أمه والمعراج وعاشوراء)، فمن بائع
في الأحياء شبه الراقية تبيع النعناع. كل سكان التي تقوم بجولاتها المعتادة
سكان أحياء غير الراقية، يموتون في الشاي الأحياء شبه الراقية وكذلك
نعناع، بارك الله فيكم، كالخمر من غير كحول أو وبالنعناع، لأن الشاي من غير
..من دون كالبحر من غير ملح أو كالرجل

.ـــ اخرس أيها الخنزير. قال الصوت السلطوي وكأنه استبق وتوقع ما سأقوله

.ـــ لماذا تشتمني هكذا بدون مقابل. قلت محتجا

.ـــ لأني عرفت خبايا نيتك الوقحة أيها الوقح

وقحة في ـــ لم تعرف حتّى زفتة (لم تفقه شيئا، بالنسبة للأجانب)، أي نية مقارنتي أتاي بلا نعناع برجل من دون شهامة. أنت تعرف يا صاحب الصوت السلطوي مثلي أن أتاي بالنعناع الشراب المفضل عندنا، يحل محل كل الخمور، نديم كل الأوقات. وأنت لست دون علم بما قال أبو العباس أحمد بن عبد الرحمان الجشتيمي رحمه الله في الشاي:

تضلع في الأتاي ما استطعت واتّخذ قداحا ظرافا للتأنس والقرب

ولا تتجاوز من كؤوس ثلاثة تنل منتهى اشتهاء نفسك في الشرب

ولا تقربنّه قبل إفراط نضج الماء والغليان واجتماعك في الشرب

ولا تقبلن مناولا غير عارف بأحوال تحسين الشراب على الدأب

ولا تجلسن في غير مجلس نزهة على أرفع الفراش في المنزل الرحب

قال شعرا في الشاي. لم أسأله. كنت أريد أن أسأل الفقيه إن كان ابن قيمه هذا قد أحد المعسكرات بعيدا عن أهلي جاءني الجواب بعد ذلك بمدّة، وأنا مرابط في عاداتهم، لست أدري كيف وصلت وحومتي، مع أناس لا أعرف لا لغتهم ولا هذه السبل، نكون في حالة ثانية إليهم، يقال، والله أعلم، أننا حينما نسلك مثل ويرشدنا من غير أن نعلم، لكن اليوم وكأن هناك رادار سماوي يشق لنا الطريق صديقي الكازاوي، تجد نفسك قد فعلت الذي تقوم فيه من "القلبة" حسب تعبير أثناء إقامتي هناك بشيخ نجدي، كان أصله أشياء لم تكن لك في الحسبان. التقيت نجد، ولا أن نجد في جزيرة العرب. من درعية، لم أكن أعرف أن درعية في المنعنع أي اشتياق، إن كانوا سألته، وكنت قد اشتقت إلى شاي قهوة حومتنا بإجابة لم تحضر على بال يشربون الشاي على طريقة أهل حومتنا، فاجأني المبارك فيهم رحمه الله، وقد شيطان ولا جان. قال: قال أحد الأئمة المغاربة النفس عرف أن هذا المشروب ما هو إلا شهوة استلذذتها:

إن الأتاي لشهوة مضر مضرة تفض لجلب الهم والخسران

وتؤول لارتكاب دين فادح ولمحق مال مع فساد عنوان

تعمي مكان المرء تقفر بيته والفقر منه تكون الأحزان

لا ذو حف يبقى له ذو حافر ويعود للبساط والدكان
تبّا لكل تاجر سعى بها وأتى لمسلم شهوة الشيطان

في المعجم، أنا لست مسؤولا كان الدابة يحمل برويطته ("مِنْقلة"، هكذا وجدتها ويتوجه إلى المجاهدين، لا، عن هذه الكلمة أفضل برويطتي) الممتلئة بالريحان المدينة. يقف عند بابها يبيع وريقات ليس الأفغان، المجاهدين اسم أكبر مقبرة في الرحمان. حفظ الدابة كلمات كانت مسجلة الريحان، لأن شذى الريحان يذكر بجنة المقبرة ليجلب الزبائن الزائرين: "الجنة دار على شريط كاسيت، يكررها أمام باب دار صفاء ونقاء، وجمال وكمال، فيها ما لم تره الخلود، والفرح والسعود، وهي من شتى الفواكه لذيذة المذاق جميلة الألوان، عين، وما لم تسمعه أذن، وفيها راحة الجسد والأبدان" ويضيف في الأخير جملة من وفيها الحور الحسان، وفيها الرند والمسك والعنبر والريحان"، ومتى كان وحيه الخاص "وفيها من الشجر الله يسامحك، حشّمتني مع قرّائي، لقد شرّعت !المسك والعنبر من الشجر يا دابة الآن عنك وعنّي وعن أهل حومتي، سيقولون أنّنا كلنا لهم الأبواب، ماذا سيقولون بشهور، كان موت أبي بعد زواج جدّي الثاني، انتهزتها جاهلون. بعد موت أبي المجاهدين، لا لزيارة قبر أبي، لأنني كنت علمت علم فرصة لأرافق الدابة إلى المقابر وزيارة أضرحة السادات والأولياء كله شرك يجب اليقين أن زيارة الذي تعلمته هناك بعيدا عن أهلي مع أناس لا أعرف عنهم محاربته، هذا اليقين شيئا، وقفت معه أتفرج على أفواج الزائرين حتى وقف شيئا ولا يعرفون عنّي الوجه بلحية حمراء وقال بصوت رباني: ما شاء الله ما علينا شيخ وقور وسيم سنلقاها بشذاها في الجنة وستكون ظليلتنا.. (أن يغلط الدابة شاء الله كلها أشجار ولكن أن يغلط مولانا التقي ففيه رأي. كنت قد وعدتكم بأنني لا ابن حومتي جائز، كلام الضيف المتطفل، إلا أنني أراني هنا مرغما على وضع النقط على أشير إلى في هذه الفترة حتى أنا لم أكن أعرف أي شيء لا عن المسك ولا عن الحروف، زلت لا أعرف أي شيء عنهما، كل ما كنت أعرفه وحسب تعليمات العنبر وما .(درعية أن كل أنواع العطر حرام شيخنا القادم من

المختبئتين وعلى لحيته الكثيفة، كانت مسح ما تبقى من لعابه المبعثر على شفتيه

الحمام. ذكرتني حمرة وجنتيه وجسده وجنتاه محمرتان وكأنه خرج للتو من
وأنا أخال هيئته وأستاذ التربية الممتلئ وكتفاه العريضتين بعمر بن الخطاب
حتى أنني أتذكر أن المرة الوحيدة ..الإسلامية يحدثنا عنه وعن عدله وفروسيته
السينما والموسيقى والراديو والتلفيزيون التي ذهبنا فيها مع جدي إلي السينما، لأن
والكمبيوتر.. كلها حرام بالنسبة لجدي، إن عملت برأي والفيديو والغناء والرقص
ذهبنا لمشاهدة فيلم عن عمر بن الخطاب. كانت سينما جدي ذهبت مكّة راجلا،
رابعة العدوية وفيلم صلاح الدين الأيوبي مرّتين في الريف تبرمجه مع فيلم
العيد الصغير، ومرة في أيام العيد الكبير. أما فيما عدا أيام السنة، مرة في أيام
فكانت كل الأفلام التي تعرضها سينما الريف أفلاما هندية، هل تعرفون العيد هذه
أولاد الحومة كانوا يتكلمون الهندية بطلاقة ويعرفون الأغاني الهندية أن جلّ
الممثلين والممثلات عن ظهر قلب، أكثر مما يعرفون المعلقات السبع وأسماء
والمفضليات ودواوين الأخطل وجرير والفرزدق (كلامي أنا الضيف والعشر
يذكرني ضيفي هذا المتطفل بمسمار جحا، بدأ يتدخل في سردي متى المتطفل،
دون حياء ولا حشمة)، وأسماء الصحابة والتابعين وتابعي التابعين أراد ذلك ومن
في معرفة الصحابة والإصابة في تمييز الصحابة (هذه الأسماء وأسد الغابة
الخارج)... كانوا يعرفون شاشي كابور، وراج كابور، وشامي كابور تعلمتها في
الخالدة سوكو سوكو في فيلم جنكلي، وأشا باريخ، وراجيش خانا، في أغنيته
...وجيتندرا و ودرامندرا

في بومباي.. هل فهمت يا ــ تكلّم بما هو مفيد أيها الخنزير. هل تحسب نفسك
حمارته. حتى صاحب الصوت ابن الخنزير؟ قال. (سعيد سعادة الدابة يوم غجعت
(السلطوي يعترف رسميا بأني ابن أبي
:ــ فهمت. التفت الفقيه حوله يبحث عني.. قلت له
ــ هل تعني أن نساء حومتي وقحاب حومة الشياطين كيف كيف؟
ــ لا يا ابني الأمور أصعب مما تتصور.. هل تعرف أن أكثر أهل النار من
.النساء؟ كل ذلك مذكور في حديث المعراج

الرابعة في معسكر لا يبعد عن جاءني حديث المعراج وأنا مرابط للمرة الثالثة أو

وعاداتهم، ودائما بعيدا عن أهلي، المعسكر الأول، دائما مع أناس أجهل لغتهم
عفوا، سبحان من لا ينام ولا يسهو، وذلك عندما زارنا واعظ خطيب وإمام واعر
درجات الورع، هو الآخر نجدي اللسان ليس فيه عظم، قصدت وارع إلى أقصى
إيماننا. وحصل أن كان درس ذلك من درعية، جاء ليحدثنا ويرشدنا حتى يكمل
المعراج هذا، عند زياراتي المتعددة اليوم عن حديث المعراج، لاحظت أن حديث
له حضور قويّ، حاجة جامدة جدّا. لإخواننا في مساجد الأحياء الأخرى كان
القيم عن الحور الذي حفظناه عن ظهر حديث رهيب لمّا يقارنه أمثالي بشعر ابن
قلب.

الله أنني لم أولد أنثى، كان بعد خطاب الإمام عن المعراج وأهوال نسائه، حمدت
هذه الحياة في أسرع وقت ممكن همي الوحيد تائه بين اختيارين إما التخلص من
المرة الأولى والجلوس بين حورياتي، أو العودة من حيث أتيت.

وجودية (لا دخل لي بهذا كلما انتابتني مثل هذه الخواطر أحولها إلى أسئلة
لماذا أكلت من تلك الشجرة :الكلام، ابحثوا عن قائله) أوجهها إلى أبي الأبدي
مشاورة. لماذا لم تشاورني؟ لو كنت اللعينة. يحسبك أنني أتيت إلى هذه الدنيا بعد
عوض التفاحة ولكنا بقينا في حومتنا شاورتني لكنت أعطيتك إجاصة أو برتقالة
هناك في أمان كل مع حورياته.

أولائك الذين يفهمون (أظن أنه هكذا كنت أتخيل الأشياء عندما فهّمني شخص من
هذا الضيف المتطفل، الذي هو نفس الشخص الذي تكلم من غير أن يستأذن،
صفاء سيرتي ويتدخل فيما انتهز الفرصة ليتكلم باسمي يريد بذلك أن يعكر علي
أحاوره فيه من محض لا يعنيه. أخبركم بأن الحوار التالي والذي جعلني
كُنّا! يعني وُجدنا. قلت: كيف اختراعه) أنّه لو لم يكن أبونا الأول أكل التفاحة لما
لم يكن لا رجلا ولا امرأة. قهقهت حتى ذلك؟ قال: إن أبانا الأول قبل أكله التفاحة
وماذا سيكون؟ من غير الخنثى المشكل لا بانت أنيابي. قلت: لا رجل ولا امرأة،
أبانا الأول لم يكن بحاجة إلى نسل ولا إلى أرى أحدا، وإلا فهّمني. قال: لأن
جنة الخلد. ولكنه عندما أكل تلك التفاحة ذرية. كانت حياته أبدية، كان في

بعدما أن وسوس له الشيطان الملعون، الملعونة من تلك الشجرة الملعونة، التي هي إلى حدّ ما مسؤولة عن جزء مما وساعدته في ذلك صديقته أمّنا الأولى باستطاعته أن يقول لها لا.. ألا ترى أن كل حصل، ولكن ليس أكثر منه، إذ كان لا. (ما عدا أمي، هي التي تقول لأبي لا، إنه الرجال في حومتكم يقولون لنسائهم مع هذا الضيف الثقيل لا أعرف أين موضع تعقيب على كلامه لأنني أصبحت .(الكلام من سياقه

قلت: ماذا تقول؟ صديقته؟

بعد. زواجهما جاء بعد حادثة قال: بالضبط صديقته، لأنهما لم يكونا قد تزوجا أبونا الأول أول ما عضّ التفاحة أكل التفاحة وليس قبلها. لأنه بمجرد ما عضّ خطيئتهما؟ قال: لا، أعني ذنوبهما، أي ظهرت ذنوبهما. قلت: ذنوبهما؟ تعني عوراتهما. قلت: تعني أنهما لم يعودا طهورين. أطرافهما، وإن أردت سوآتهما أو أين يأكلا من الشجرة لم يكونا بحاجة إلى مخرج قال: بدأت تفهم. لأنهما قبل ولكن بعد الأكل تغيرت الأشياء، أحدثا تغييرا في للتخلص من نفايات ما أكلاه، فيروس شلّ الكمبيوتر، فجعل الله لهما مخرجين، مخرج النظام لم يكن متوقعا، وبهذا أصبحت علتهما متعلقة بالأكل والشراب.. ألا ترى للسائل ومخرج للصلب، ذنوبهما بأوراق الشجر.. قلت: كيف يستطيعان أن يغفرا أنهما بعد ذلك غفرا إن الله هو الذي يغفر الذنوب. قال: لم تعد تفهم. غفرا، ذنوبهما وبورق الشجر، إذا أردت عوراتهما.. قلت: يعني أنت الآن تحاول أن أي سترا مخارجهما أو معناها ستر العورات. قال: بالضبط. بدأت تأكل حبّ تفهمني أن غفر الذنوب على ذلك؟ قال: ألا ترى أن من أقوال العرب نجد: الفهامة. قلت: وما دليلك فلانا غفر الشيب بالخضاب، ومنه قول الشاعر" "غفرت المتاع في الوعاء" وأن:

حتى اكتسيت من المشيب عِمامة غَفْرا، أُغْفِر لَوْنُها بخِضاب

رأسها والرقعة التي تكون على وأن من معاني الغِفارة خرقة تلبسها المرأة فتغطي تكون فوق سحابة أخرى حزّ القوس الذي يجري عليه الوتر والسحابة التي ينزلا لكي لا يدنسا (جميلة سحابة فوق سحابة أخرى هذه). فكان من اللازم أن

وليعمّروا طمعا في طريق جنة الخلد، فسخر لهما الكلأ والماء والجنس ليحيوا
حيث أتيا أصبح كل منهما العودة (سيزيف أبدي).. ولكي يجدا حلقتهما ويعودا من
في تاريخ البشرية تناقلتها زوج الآخر، فتزوّجا وحصلت بينهما أول علاقة جنسية
العودة أو محبّة في البقاء بعدهما الأجيال، لست أدري إن كان ذلك طمعا في
قد أصبح القانون الأساس والدوام (تغركم التناقضات).. وبهذا يكون الجنس
للملائكة لأنهم ليسوا بحاجة والمنظم التي تدور حوله الحياة. ألا ترى أن لا جنس
.لأن يتوالدوا
.وأصبح الخلود إثر هذا متواترا بعدما أن كان متواصلا

* * *

إن كنا نعرف قصة المعراج كان خطيبنا هو الآخر يرتدي لحية لا بأس بها. سألنا
بعد سؤاله بدأ مباشرة في الحديث كاملة، لم يكن جوابنا لا سلبيا ولا إيجابيا، لأنه
:عنهما قال عن المعراج. قال: عن ابن عبّاس رضي الله

سوداء معتمة مظلمة فيها ولما كشف خازن النار الغطاء عن جهنم فإذا هي»
يرحمن لأنهن كنّ يتزيّن نساء باكيات محزونات ينادين فلا يجبن ويتضرعن فلا
وفي أعناقهن السلاسل لغير أزواجهن. ومنهن نساء وعليهن سراويل من قطران
منهن لزوجها ما أشنع والأغلال كنّ مستخفات بأزواجهن اللاتي تقول الواحدة
وجهته زوجة صبية وجهك وما أقبح شكلك وما أنتن ريحك (ربما كان كلاما
لا تعرفون قصة قاصر في مقتبل العمر لشيخ هرم نتن خبيث طمّاع كجدّي، لأنكم
معلقات من جدّي الأخرى، سأوافيكم بها في سياق الحديث). ومنهن نساء
شعورهن من شعورهن ويغلي دماغ رؤوسهن كغليان القدور لأنهن كنّ لا يغطين
بكلاليب من الرجال الأجانب. ومنهن نساء معلقات بشعورهن ومكبلات بأبزازهن
الناس بغير نار (ذروة ذرى السادية، وحلم المازوشية) لأنهن كن يرضعن أولاد
ناصيتهن (يوغا) إذن أزواجهن. ومنهن نساء أرجلهن إلى ألسنتهن وأيديهن إلى
والجسد ولا لأنهن كنّ لا يحسنّ العشرة، ولا يحسن الوضوء، قذرات الثياب
نساء صم يغتسلن من الحيض والجنابة، ويتهاون في صلاتهن حتى تفوت. ومنهن

بكم عمي في تابوت من نار يخرج دماغ رؤوسهن مثل الدهن من مناخرهن،
وبدنهن ينقطع من الجذام والبرص لأن أولادهن كانوا من غير أزواجهن من الزنا
فيجعلنهن في أعناق أزواجهن. ومنهن نساء معلقات بأرجلهن في تنور من نار،
لأنهن كن مسلطات اللسان يشتمن أزواجهن. (سألت مرّة جدي عن النساء الذين
وليس يشتمن أزواجهن، ملمّحا لابنته، أي أمّي، أجابني بأن الأمر يتعلق بالمؤمنين
وعليها بالخنازير). ومنهن امرأة لها رأس كرأس الخنزير، وبدن كبدن الحمار،
والجيران وتسعى ألف نوع من العذاب لأنها كانت نمامة توقع العداوة بين زوجها
شجرة الزقوم بين الناس بالنميمة والكذب. ومنهن نساء معلقات بشعورهن في
يقتلن والحميم يصب عليهن فيهري لحومهن لأنهن كن يشربن الأدوية حتى
نار أولادهن خوفا من مطعمهم ومشربهم وتربيتهم. ومنهن نساء مقيدات بقيود
وقد فتحت أفواههن ولهيب النار يخرج من بطونهن لأنهن كنّ مغنيات ومتن من
غير توبة (مسكينة أم كلثوم وفيروز وأسمهان والحاجة الحمداوية وحجيب
وعبيدات الرمى، ما هذا الهذر حجيب وعبيدات الرمى رجال يا فلان). وينهي
شيخنا الإمام حديثه بقوله: ورأى النار وأهوالها وعقابها شديد لا تقوى لها
الحجارة والحديد ورأى فيها أهوالا عظيمة فداخله منها رعب على ضعاف أمته
.وأكثر أهلها النساء». انتهى

وكان تعليقه: والله سمع صديقي البيضاوي نفس حديث المعراج في مكان آخر،
مؤلف سيناريو) هاد) إتّ فيلم دورور (رعب) تّع الخوار، وليّني سينياست
...الفقيه

أفلام الرعب، إنها ترعبني.. أين أنتن يا حورياتي، النجدة، خذنني إليكن. أكره
رمضان؟ لأن حكايته هذه هل أفشي لكم بسرّ حكاه لنا جدّي في إحدى ليالي
العجلة.. إن العجلة من أرعبتني إلى حدّ الجنون. لا تجزموا ولا تأخذكم
المقلّق (أو الزربان في الشيطان.. والتأني من الرحمان، ازرب تتعطّل، الفأر
الحكاية، لأنني كنت حديث آخر) من سهم القطّ. إن الشيء الذي أرعبني ليست
.أعرف أنّ جدّي كذّاب، ولكن الذي حصل بعد الحكاية

الصالحين في جبل من جبال الحكاية: ذهب جدّي مرّة لزيارة ولي من أولياء الله
ولا قبة ولا مسجدا، مجرد حائط الله الشامخة.. لم يكن لهذا الولي الصالح لا مبنى
من حديد يطل على شجرة من من الحجر مطلي بالجير، وفي وسط الحائط شباك
رحبة صغيرة تطل على فصيلة البُطميات، أما مكان الصلاة فكان عبارة عن
تدرك حدودها، كانت السماء، منظرة ينسرح منها النظر إلى مسافات لا تكاد
وليا بيئيا مثله، (ولي الرحبة وقد فرشت برقاع من الفلين تحيط بالشجرة. لم أر
زيارته بالترحم على موتانا إيكولوجي! جميل، قال الفضولي). وعندما ختم جدي
بلغ من الشيخوخة ما شاء الله، وكان والدعاء بكثرة البنين والمال والجاه، وقد كان
أن يصلي صلاة العشاء في مسجد ذلك بعد صلاة المغرب. أحس بالبرد وقرر
ربع ساعة مشيا على الأقدام. القرية الذي يبعد عن ضريح الولي الصالح بحوالي
عندما يغيب القمر يحلّ الظلام ..دخل جلبابه وسوّى رزّته وشرع في النزول
يتحسس طريقه في سواد الليل سمع الحالك محلّه ويجّن الليل. وبينما كان جدي
من أعلى شجرة الفلين التي صوتا، من بين أصوات أخرى تتكلم بهمس، يناديه
فاجأه الصوت الذين ناداه تركها وراءه. حاول أن يدور ليتصفح مصدر الصوت،
قائلا:

ــ لا تتحرك وابق مكانك.

سكن الرعب قلب جدّي، كم كنت أتمنى أن أكون شاهد عيان سرّه هذا، وأنتقم من
الذي سيفعله لاحقا. سأله أبي:

ــ هل بلت في السروال؟

أجابه:

ــ اسكت لعنة الله عليك يا كريه الخلقة..

خيّم الصمت من جديد، تابع جدي الحديث:

ــ بقيت مكاني أقرأ المعوذتين عندما قاطعني الصوت:

ــ ما اسمك؟

ــ الكبــ ــيــ ر التــ ــهــ ــامي.

ــ ما لك ترتعش مثل نوافذ وكراسي وركاب حافلات النقل القروي؟ لماذا قرأت

المعوذتين؟

نسيت ..أحسست وكأن الجبل يتلاشى تحتي.. كيف عرف أنني قرأت المعوذتين

الرجيم.. سؤاله بدأت أردّد في داخلي وبسرعة البرد: أعوذ بالله من الشيطان

الشيطان أسألك الأمن والسلامة من كل إنس ماكر وجان مارج.. أعوذ بالله من

...الرجيم.. أسألـــــ

رأسك من ــ قرأت المعوذتين والآن تشتمني.. أو تريد أن أمرجك حتى لا تعرف

رجلك.. سألتك ولم تجبني. هل أنت زيزون (أخرس للأجانب)؟

المارج، أنا بيضة ــ لا يا سيّدي... أنا... ها العار، أنا في عاركم.. أنا هو

مولاي الولي، يا قنديل مارجة.. شيّ الله يا سيدي الولي بن سيدي.. شيّ الله يا

.الجبال

.ــ هل أنت مؤمن؟ قال

فطنت أنه كان ــ مؤمن يا سيدي. لا أفلّت الفجر أبدا. (عرفت فيما بعد عندما

بشخير يسمعه كذّابا.. كم مرّة رجعت من قهوة الحومة مع الفجر، وهو ضاربها

.(الملائكة في السماء والجان في باطن الأرض. كانت هذه أول كذبة

ــ أنت الكبير التهامي ولد رحّال؟

ــ نعم يا سيّدي. هل تعرفني؟

ــ بالطبع أعرفك أصلا ومعدنا، أعرف أباك وكل عشيرتك.. نحن من أهل

.الأرض

إلا عبدا ــ أنتم موالين الأرض؟ أنا في عاركم يا موالين الأرض، أنا لست

من موالين حقيرا، جئت لزيارة الولي الصالح وتبركا بمقامه الرفيع. فإذا كنتم

الحومة، الأرض الصالحين، فأنا أخوكم من الإنس. (كان جدّي أكبر جنّي عرفته

.(بالفعل كان بيضة مارجة، ولكن كم كانت عينه مارقة

:استرسل جدي حديثه قائلا

كانت ورائي، ــ سمح لي أحدهم أن أدور بتأنّ وأن أرفع عيني إلى الشجرة التي

من الجانّ وصارت أمامي بعدما أتممت الدورة، وذلك بعد أن أكّدوا لي أنهم

شكل المسلمين. درت كما أُمرت ورفعت عيني فإذا بي أرى ثلاث جنيين في

قزم، لكل منهم قرنين وعينين حمراوين يخرج من داخلهما نور يضوي المكان،

كانوا يرتدون جلاليب بيضاء، وكان للأول أصابع بأظافر طويلة وملتوية وكأنها مخالب وللثاني أنف أطول من غصن الشجرة التي كانوا يمتطونها.

ـــ أطول من أنف خالتي. سألته.

ـــ اسكت يا ابن الجيفة. قالت أمّي ألم تر أنف أبيك المحكوك، كبير الجيفات.

(بالفعل كان أنف أبي طويلا وعريضا، ولكني كنت أجده مع ذلك وسيما).

قال جدي:

ـــ الجني الثالث والذي كان في صورة ملاك، سبحان من صوره، كأنه بنت المصمودي حرفا بحرف (كأن جدّي سبق له أن رأى ملاكا).

ـــ بنت المصمودي، من الذي دخّل بنت المصمودي في الكلام؟ تعجبت جدّتي.

ـــ خلاص يا أختي، اتركه يكمل حكايته. ردّت خالتي الكبيرة.

تابع جدي:

ـــ قال هذا الجني: اسمع يا ابن رحّال، نشهد أنك من المؤمنين الصالحين الورعين، أنه وما نحن إلا مسخرين، يخبرك الولي الصالح بن الولي الأكبر، سيهبك من بركته وتصبح بذلك شريفا من الشرفاء.. ستسهل لك العزامة وكتابة الحجابات وحل العقايد.. هذا سرّ بينك وبينه.. كلما ناديته وتوسلت إليه قضيت حاجتك (قضينا نصف العمر في تلك البراكة اللئيمة بين خراء الفئران وعضّ البعوض والناموس)، واطلب من بنت المصمودي أن تخدمك وإلا خرّبنا سكنّاها بيت أهلها..

قال أحد جيراننا من بين الذين تابعوا خطاب جدي وأبواب فمه مفتوحة على مصراعيها:

ـــ كنت دائما أقول إن السي الكبير التهامي له هبة الأولياء وحشمة الأتقياء.. (وأنف الذئاب التي تشمّ رائحة ضحيتها عن بعد)).

ـــ أردت أن أشكرهم على ما فعلوه معي وأن يبلغوا الولي الصالح إحساسي وشعوري، إلا أنهم كانوا قد اختفوا. قال جدي.

منذ ذلك اليوم أصبح سكان الحومة يخشون جدّي وأصبحوا يكنّون له بالوقار والاحترام.

.(انتهى الفصل الأول من حكاية جدي)

*   *   *

رأيتها في سبيلة تسقي بنت المصمودي هذه كانت فتاة آية في الجمال، كم مرة
وحفارا للقبور في مقبرة الماء مع لطيفة بنت الفحام. أبوها كان يعمل حارسا
صلاة المغرب، يعمل دلاّلا سيدي بوعبيد، يقضي النهار كله يحفر القبور، وبعد
ماتت زوجته وتركت له .يدلّل جميع أنواع الخردة في جوطية السوق البراني
الموت. إنها أمانة في صفية بنته الوحيدة. وأوصته بها خيرا وهي على فراش
الجنون، يرى فيها زوجته عنقك يا المصمودي. كان المصمودي يحب ابنته حدّ
بنت المصمودي، مثل جميع التي فقدها وابنته التي تعيد ذكرى زوجته. لم تذهب
الكتّاب ولا حتى لدار المعلّمة (بنات الحومة، لا إلى المدرسة ولا إلى (المسيد
الحومة، لم يكن الذكور أكثر لتعليم الطرز والفصالة والحبك مثل بعض فتيات
بدايتها، كانت تقوم بتنظيف بيتهم حظا من الإناث، أكثرهم كان يطلّق المدرسة في
مصبوغ كله بالجير الأبيض المخلوط .البسيط المتكون من غرفة ودهليز صغير
لونا ذا صبغة خاصة.. تراها دائما في بالنيلة.. كانت هذه الزرقة تعطي لبراريكنا
أبيها، بعد ذلك تصاحب بنت الحمام إلى حركة، تقوم بترتيب بيتها وبغسيل حوائج
كالنملة والنحلة معا، في حركة أبدية.. بالفعل، سبيلة لتسقيان الماء اللازم، كانت
.ملاكا صغيرا بين وحوش ضارية قالها جدّي الملعون.. كانت

أشهر، على ما أظن، لأنهم عندما رجع جدي وجدتي من الحج بعد غياب دام ستة
المدينة المطل على المضيق. كانوا يذهبون أيامها إلى الحج في البواخر من ميناء
جدّي الطاقيات والمسبحات وماء بعد ما أقيمت لهما حفلة استقبال الحجاج، وفرّق
شرفهم، لأن جدّي بعد زيارته زمزم، جمع أعيان الحومة وأقام حفلة عشاء على
رجلا له كرامات، مشعوذا (كلام الولي الصالح ولقائه الجنيين الثلاثة، أصبح
عميق، من نساء أرامل يردن الزواج، الفضولي)، وبدأ الخير يعم عليه من كلّ فجّ
يقطنهم موالين الأرض مثلي، وآخرين ومن بنات فيهن الأرياح، وأطفال مسكونين
العشاء والدعاء.. نطق أحد سكان يبصق على دماملهم وحزايزهم لتبرأ... بعد

الحومة:

(بدأ الفصل الثاني من حكاية جدي)

شاهد على ما أقول ــ أنتم تعلمون أن السي الحاج الكبير التهامي بن رحّال، والله
وحتى النصارى وأهل الحومة كلهم شاهدون، رجالا ونساء شيوخا وأطفالا،
أوقاته متفان في واليهود وغيرهم من الكفرة لعنهم الله إلى يوم الدين، يقضي
أخذها عن جدّه خدمة الله وخدمتكم وخدمة كل الناس، وذلك بفضل البركة التي
آنذاك نستطيع أن الولي الصالح (يا ويلي أصبح الولي الصالح جدّا لجدّي، لم نكن
والله عجايب"، لأن الواقعة نستمع على أمواج الراديو لأغنية "والله عجايب يا دنيا
سياق الحكاية) صنع سبقت الأغنية، أنا آسف أنني لن أستطع إدراجها في
خسارة المعجزات.. قال أبي الذي لم يكن سكران ذلك اليوم، يا!:
ــ بدون مقدّمات ولا تبرير ادخل مباشرة في الموضوع، لقد عقنا وفطننا بك يا
كبير الذئاب.

قال جدّي:

ــ العجلة من الشيطان، وما أكثر الشياطين والعيّاذُ بالله.

قال الحاضرون:

ــ صدق الله العظيم.

تابع ساكن الحومة مرافعته:

السي المعطي ــ أنتم تعرفون أن حرم السي الكبير التهامي لالا الكبيرة بنت
السماء، لا أصبحت امرأة مسنة، انتفخت أوداج جدّتي، ورفعت أنفها في اتجاه
سمعت اسمها ليس كغانزبورغ، بل كمن يدقّ السمّ في المهراز (الهاون)، عندما
على شفتيها يذكر علنا أمام الملأ في حومتنا الملاصقة بباطيو بينطو، وارتسمت
حرم، آمْوّي ابتسامة مكرة، (واتًّ زدني، قال صديقي الكازاوي، الوليّة أصبحت
الراحة، ويلزمها (أُمّاه)، ولد رحّال أصبح عنده حرم)، وهي بحاجة إلى شيء من
بنت المصمودي يد المعونة، ولكي يخفف عنها هذا الوزر الثقيل، نصحناه ينكح
الولي الصالح على سنّة الله ورسوله، كما نصح بذلك الجنيين وعبره جدّه.

غنت بنات الحومة:

أو هنا طاح اللويز
أو هنا نلعبوا عليه

أحسّ ساكن الحومة بالعطش. شرب جغمة ماء بتأنّ. بينما هو يشرب، قال له
:أبي
.تشرب السمّ ويذوب في مصارينك أيها المتعاون مع الأعداء -
:وضع ساكن الحومة كأسه غير محتفل بما قاله أبي وتابع
وكما تعلمون رجل ما لم يقله لكم السي الحاج الكبير التهامي ولد رحّال، لأنه -
سأحكيه أمامكم متواضع، وقد باح لي مرّة بعد صلاة الفجر بسرّه هذا الذي
شدّة التعب مباشرة، هو أنه عندما كان يؤدي مناسك الحج جلس يستريح من
وأثناء غفوته والحر، وكان ذلك بين الصفا والمروة، فغفا غفوة دامت رمشة عين،
:هذه سمع حينها هاتفا يقول

لا تفرّط في صفية
إنها لك معطية
جمالها وصفاؤها
كجمال وصفاء حورية
سل أباها يدها لن يرفض
لأنها لك وصية

جدّتي أحسن ثيابها: هلل من هلل وسبح من سبح وزغردت من زغردت، وألبسوا
اشتهرت به مدينة قفطان ودفين وكرزيّة وسبنية بلدية مطروزة بطرز معروف
يستقر في مدينتنا، مجاورة عاش فيها، حسب ما يقال، أُميّ أصبح كاتبا قبل أن
سنيدة وسكر القالب ورافقتها أمي حاملة قفة مملوءة بمتطلبات الخطوبة من سكر
وشمع أبيض، وأتاي القافلة الأخضر خمس نجوم، وزجاجتين من ماء الزهر
لم تقبل وخطبوا لجدّي صفية بنت المصمودي.. قبل أبوها على التو الوصية،
ودلّلها كخردة صفية، لم تقل ذلك لأبيها، لأنها كانت تعلم أنه كان قد حفر قبرها
التهامي صاحب للحاج الكبير التهامي بثمن بخس. ونكح السي الحاج الكبير
.الكرامات المشعوذ صفية بنت المصمودي حفار القبور الدلاّل

بكى الملاك الصغير يوم دخلته، ولول وصاح صيحة وصلت تخوم الكون
.وتلاشت، وتمت راجعة والخيبة قد سكنتها إلى الأبد
بفترة، ولكني لم أعد أذكر بالضبط إن كان حصل ذلك بعد زواج جدّي من صفية
وكأن أهل الأرض شبه متأكد أنه كان خلال تلك الأيام، غابت لطيفة بنت الفحام،
عندما جاءت خطفوها. ونسيتها كما نسيتها حومتنا بالمرة، إلى أن فاجأتني
.لزيارتي في السجن مع ابنتها شامة

مخمرا، لكن لم تكن علامات بعد ذلك بكم يوم رجع أبي من حيث لا أدري، وكان
عليه لما يكون سكران، كنت البهجة والسرور بادية على وجه مثلما كانت تبدو
المراح (فناء براكتنا) أحسست أن حالته كانت قد بدأت تتدهور، جلس في وسط
أخرج من جيبه شيئا وطلب مني أن أعطيه طبسيلا (صحنا بلغة حومتي) صغيرا،
:على وجهه، ثم قال ملفوفا في ورق أبيض، نظر إلى جدّي وعلامات الجد بادية
.أفضل أكل الخنزير على مشاهدته -
السيكي، لأن فتح الورق الأبيض وأخرج قطعا من الخامون الذي اشتراه من عند
كانت أول مرّة ..السيكي كان يبيع لحم الخنزير كذلك، بدأ يلتهمه بنهش ولهف
أن قلت إننا في أرى فيها جدّي لم ينبس بكلمة واحدة، كأنه تابوت توت (لقد سبق
لم تتزعزع حومتنا نفضل الاختصار في كلّ شيء وبالخصوص في الأسماء) كما
.لا جدّتي ولا أمّي
توقف أبي لحظة عن أكل جدّي، عفوا عن أكل لحم الخنزير، وكأنه قد نسي شيئا
.تنبّه إليه
تعلم أنه حرام ــ يجب أن تبني بيتا آخر لحريمك الجديد، يا ولي الله الصالح، هل
تقل بعد بسم الله. الجمع بين وليّتين واحدة قدمها الأولى في القبر والثانية لم
الفقيه الذي كان (ذكرني هذا بقصة حكاها لي صديقي الكازاوي، مفادها أن
غرفة ليس لهم إلا يدرسهم في المسيد (الكتّاب)، كان يسكن مع زوجته وأبنائه في
من الممارسة، كان هي، وعندما كان يريد أن يمارس ما أحلّ الله له مع زوجته
خصيصا لهذه ينتظر أن ينام أبناءه جميعا وينغز زوجته بقضيب طويل صنعه
أحل الله المأمورية، فتتسرب زوجته بين أجساد النائمين ويمارسان في دفئ ما

والشيخ، بفعل لهما من الممارسة. إلا أن الأبناء بدؤوا، ما شاء الله يكبرون،
صديقي السنين، أصبحت بوصلته غير دقيقة لاسيما ليلا. يحكى، دائما حسب
زوجته الكازاوي أنه ذات ليلة من ليالي البرد القارص صوب قضيبه الطويل نحو
البرد. ينغزها إلا أنه وقع على أحد أبنائه الذي لم يكن قد نام بعد بسبب قرص
قضيبه بنته انتظر الفقيه لحظة ثم أعاد العملية مرة أخرى، لكنه هذه المرة نغز
الذي على ما الوسطى، كرر العملية عدّة مرّات حتى ضاق الحال بابنه الصغير،
إخوته حتى لا يبدو، حسب قول صديقي، تذكره أفعاله بأبي، تمتم الابن قائلا بين
يسمعه أبوه:

ـــ قولوا لتلك القحبة أن تلتحق به قبل أن يعوّر عين أحد منّا.

ويديها عندما سمعت صفية كلام أبي، وقد كانت مختبئة وراء باب الفصيل
وجوه متعلقتين بإحدى دفتيها، ارتسمت على وجهها بسمة حزينة، كما ترتسم على
كل طفلات العالم البريئة في سنّها.

في السجن، هذا الحشو جاءني بعد زيارات لطيفة بنت الفحام المتعددة لي وأنا
مثل الماء لأنه كان يصعب علي فهم كل هذه الأشياء، كل هذا كان عاديا جدا،
الدابة الذي تسقيه البنات من سبيلة ونشربه والنعناع الذي تبيعه أم...

وما أنا إلا من (باطيو بينطو) إن غوى غويت وإن يرشد أرشد

أدار الفقيه رأسه ثم باشرني بسؤال يسألني فيه أين توجد حومتي. أجبته:

ـــ قلت لك في طريق الجبل الكبير؟ هل أنت سطل؟ لست أدري إن كان الريح قد
ضربك أم اختلطت عليك الخيوط أم ماذا؟

ـــ أين بالضبط؟

ـــ قلت لك في حومة صدّام. يعني لم أقلها لك مباشرة ولكني قلتها، لأن ذلك جاء
في سياق الكلام.

ـــ بدون دخول وخروج في الكلام، تكلم بالمفيد. قال الصوت السلطوي وقد بدأ
يحس بالجوع لأن ساعة وجبة الغذاء كانت قد اقتربت.

ـــ طلب مني أن أتبعه.

ــ وبعد ذلك؟

الصراط. ــ بعد ذلك، دخلنا من باب صغير خلفي. يتبعه ممر طويل كأنه
خطاه، الرطوبة ورائحة الغمل والعفن خارجة من حيطانه. كان يتقدمني مسرعا
وراءه. وكأنه يريد أن يتفادى رائحة الغمل الطاغية بسرعة. نسي أنني أسير
:توقف فجأة وكأن حيّة تعترض طريقه. استدار ناحيتي وتمتم بصوت خافت
مولانا، أجبت ــ لا أريدك أن تتبس بكلمة في حضرة مولانا، إلا إذا سألك
مباشرة، يجب أن باختصار واحترام ومن غير كلام فاحش، لا تنظر إلى مولانا
مولانا. إنه أعمى تحدر عينيك إلى الأرض، لأن ذلك لا يجوز في مقام وحضرة
يجب أن تكون أعمى ولكنه يرى بقلبه.. (الأعمى يراك ولكنك لا تراه، لكي تراه
.تعرف حظك مثله) إن خيطك رفيع.. مفتول من برشمان الرحمان.. أنت لا
ــ ما الذي يضحكك؟ قال الصوت السلطوي وقد بدأ فعلا يحس بالجوع، كأنه
.ذئب لم يأكل طيلة فصل الشتاء
ــ تذكرت أنني قلت له: لا أعرفه ولا يعرفني، ومتى كان لبلاّرج (اللقلق)
.ولأولاده حظّ
:وغنيت أنشودة كان أبي يغنّيها لي مهدهدا وهو يناولني العصيدة

يا بلاّرج طاق طاق
خلاّ ولادوا في الطبق
مشى يصطاد الحجل
ضربو المنجل للرجل
قال لها يا عيشة يا أختي
اعطيني صبيع د العسل
باش نداوي هاد الرجل
خيط اخضر
خيط احمر
خيط معمّر بالجوهر

:وكان أبي يضيف
.ــ وخيطنا نحن مطروز بالخراء
وزنها الأرض.. ــ يا ابني، لا تقلل من قيمتك، قال الفقيه، لقد وهبك الله قيمة

الذين قهرهم قليل هم الذين وصلوا إلى هذا المقام. انظر حولك كم هم أولئك
والقحط وكل الزمان وجعلهم طريحي حلبة الفقر والمرض والشدة والعسر والقهر
بقة، أنواع البؤس والتعاسة... انظر حولك إنك محظوظ بن محظوظ، (بقة بن
لم وعنطيز بن عنطيزة، أنا المتطفل هذه المرة وليس الآخر. هل لاحظتم أنه
يتدخل منذ مدة، ربما غضب. أحسن) لا تأكل من القمامات ولا تشرب الماء غير
الصالح للشرب، لقد أرادك الله أن تعيش في حومة صدّام وأن تكون من أبناء
بينطو حومة صدّام، في هذا الزمان اللئيم (كم كنت مشتاقا إلى حومتنا في باطيو
والبشع). وإلى أهلها بجميع أصنافهم الصالح والطالح والمليح والقبيح والطلي
الذين يقطنون أولئك احمد الله وصلّ على النبي، تخيّل برهة أنك الآن من بين
الرجا في الله أو بدوار بالواد الخانز، أو بدوار الشيشان أو بدوار الظلام أو بدوار
جديدة في ضواحي جمافو أو بحومة الهجاجم أو بحومة الحمير (أعرف حومة
يضحك، كل شيء المدينة تحمل اسم حي السعادة، اسم على مسمى، ومن الهم ما
والكلاب السائحة موجود في هذا الحي وبكثرة، القمل والوسخ والدود والزبل
من بين عباده وقد رأى والكذب والرشوة، إلا السعادة). احمد الباري، لأنه استقاك
وعلما، ستحدّث في المساجد فيك العبد الصالح والإمام الفالح، سيملأ قلبك إيمانا
من حيث لا تحتسب، وتصل كلمتك مشارق الأرض ومغاربها. ستؤتى من العلم
.(من يدري وستصبح بإذن الله أمير الأمراء (ظننته يستهزئ مني، ولكن
شجر المسك اختلطت علي الأزمنة والأمكنة. أحسست بنسائم الجنة النابعة من
سيدنا رضوان. والريحان تداعب أنفي، بكلامه المتقاطر كالعسل، رأيتني أناجي
غفوتي. عدت وأنا أتفسح في حضرته في جنة السلوان. رائحة الغمل أيقظتني من
.إلى رشدي

السلطوي ــ هل الشخص الذي قُدتَ إليه موجود في هذه القاعة؟ سأل الصوت
اللاهوت لا تحب ليتأكد. لأن السلطة يجب دائما أن تتأكد من الأمور، إنها مثل
.اللبس والغموض والمجاز، تفضل البيان والبلاغة والفصاحة

سيخمد ــ نعم.. لم يطلب مني الصوت السلطوي أن أنعت له الشخص، وإلا
أثناء عنصر التشويق وتصبح المسرحية ركيكة، لأنني نسيت أن أقول لكم، أنه
محاكمتي كنت قد بعت حقوق تصوير المحاكمة لتلفيزيون أجنبي، يتابعها

المشاهدون مباشرة عبر شاشاتهم الصغيرة، فكان القاضي مضطرا أن يؤجل
.أسماء المورطين في القضية إلى آخر حلقة من المحاكمة الكشف عن

أمام باب من حديد أسود أصدأت بعد الممر الخَنِز نزلنا بعض الدروج، فإذا نحن
الحيطان مكونا فقاقيع سوداء ناتئة أطرافه بفعل الرطوبة والندى الذي ينبثق من
حمامات حومتنا، مرورا بحمامات عفنة. مثلها مثل التي نجدها على جدران
وحمامات حارة الفليحي وحتى عند السيدة نفيسة والسيدة زينب والسيد الحسين
كالسجن الذي أقيم فيه خلال هذه القليس الذي بناه أبرهة. وكذلك في السجون
.الأيام

ــ من غير هزل أيها الوقح.. ربما تريد أن نحجز لك غرفة في الشيراتون؟ هيا
.تابع

فتح إثرهما ــ نحنح مرتين. انتظر قليلا ثم أعاد النحنحة ثلاث مرات متواترة
بغل الباب الحديدي الأسود الذي أكل أطرافه الصدأ. تقدم شخص في شكل
وطاقية بعضلاته المفتولة، كان يرتدي لحية طويلة من اللون الأسود على وجهه
نجدية هي الأخرى سوداء على رأسه، لم أعد أذكر إن كانت الطاقية أفغانية أو
.من النوع الذي يشتريه الحجاج قبل عودتهم من الديار المقدسة

ــ هل تعرف اسم البغل؟

ــ بعدما فتح الباب تقدم نحوه صاحبي وباسه بوستين طويلتين على وجنتيه
:العامرتين المعتمرتين، وهو يردّد

ــ إن شاء الله توحشّتك كثيراً يا أبا مصعب. ما هذه الغيبة إن شاء الله؟
أذنه لهذا لا ــ كنت إن شاء الله كما تعلم.......... (تمتم محتوى النقط في
وأنت يا أخي أبا .أستطيع ترديدها) إن شاء الله وقد عدت منذ أسبوع إن شاء الله
.صهيب... هل من جديد؟ إن شاء الله
أمير العملية. سيصبح أبا ــ هذا أخونا أبو عيينة.. إن شاء الله، عيّناه إن شاء الله
أنه سيغير اسمي دون أن عيينة إن شاء الله عن قريب أمير الأمراء (قلت لكم
.(يستشيرني

.خلعنا أحذيتنا، أشار إلي البغل أن أقعد في مكان معين

تعبانا نخرني السهاد بكل غابا عني أظن بعض الوقت.. طال انتظاري.. كنت بكل حوادثها ووقائعها، لأنني أنواعه.. كل ما كنت أبغيه هو أن أتقيأ سيرتي هذه، .فعلا كنت تعبانا

الحلم واليقظة، أشياء أغمضت عينيّ وغفوت بعض الوقت. رأيت، وكأنني بين تنفجر من تلقاء نفسها وتنهار كثيرة رهيبة، كأن كل الأشياء المنكفئة على نفسها بالصراخ بالبكاء بالنشيج بالعويل أمامي، كأنها من ورق، يختلط الهدير بالصياح بالرجال بالنساء بالشيوخ بالمسلمين باليهود بالأطفال بالصبيان بالبنات بالفتيات له بالمسافرين بالقادمين بالراحلين بالواقفين بالنصارى بالبوديين بمن لا دين بالنائمين بالفرحين بالغاضبين بالمديرين بالموظفين بالجالسين بالقاعدين بالفقراء بالأغنياء بالعربية بالريفية بالسوسية بالإسبانية بالمستخدمين بالمستأجرين بالشرطة بالإطفاء بالإسعاف بالمحامين بالمحاميات بالركض بالجري بالفرنسية بالضياع بالبحث بالعثور بالشاحنات بالسيارات بالدراجات بالطائرات... بالتلف شيئا تفرقع وأحدث كل هذا الخليط... كان كابوسا مهولا، روّعني إلى أقصى كأن .حدّ

أتذكر أن صوت حارس ولما استيقظت كانت لطيفة بنت الحمام واقفة قبالتي، لأن هناك شخصا جاء الزنزانة هو الذي أيقضني طالبا مني أن أتقدّم للتفتيش الحراس يفتش لزيارتي. ظننته أبي. لكن أبي مات من زمان، بينما كان أحد ثلاث مرات جيوب سروالي، رأيت أبي يقول: لاشيء أغرب من بني آدم. كررها :ثم غنّى بعدها

يا ليت آدم طلّق أمهم حوّاء... يا ليته

لطيفة بنت الفحّام. كانت هناك وراء الحاجز الحديدي الذي يفصل بين السجناء .والزوار

قالت والدمع قد عاد من جديد ليبلل عينيها بعد غيبة طويلة، نفس الدموع التي

:سالت من عينها ونحن عند سبيلة حومة باطيو بينطو

ـــ ماذا فعلت؟

.ـــ أين أنا؟ سألتها

.ـــ أنت في السجن العسكري

.ـــ ولماذا أدخلوني السجن العسكري؟ سألت مندهشا

هذه البنت ـــ هل تعرف لماذا أنت هنا؟ سألت بنت جميلة كانت ترافقها، كانت
ونحن في تشبهها إلى درجة أنني ظننت أنها لطيفة بنت الحمام التي عرفتها
.الباطيو

.ـــ هذه شامة بنتي، أجب على سؤالها. قالت لطيفة

من صور ـــ لا أعرف.. كيف أعرف وأنا لا أتذكر أي شيء.. آخر ما أتذكّره
دخلنا هو أنني كنت مع فقيه كان قد وعدني بشيء لم أعد أذكره.. تبعته إلى أن
جلست. .مكانا ما، كان هناك رجل كالبغل ينتظرنا، أمرني بالجلوس في مكان ما
.أحسست بتعب وإرهاق شديدين.. غفوت. ولما استيقظت وجدتني واقفا أمامك
البغل لا.. أتذكر شيئا آخر كنت قد نسيته.. أتذكر أنني عندما غفوت، عاد الرجل
قاعة ورجّني زعزعني من كتفي، استيقظت وأمرني أن أتبعه.. فتح بابا دخلنا
.مظلمة يتوسطها شيخ أعمى.. وبعدها لم أعد أذكر شيئا

.ـــ لقد أعماك الأعمى. قالت شامة

* * *

غيبة دامت مدة لا يستهان دهش أهل حومة صدّام عندما رأوني ولأول مرة، بعد
كانت ملامحي قد تغيرت بها، عدت وأنا أرتدي لحية طويلة غزيرة سوداء.. نعم
سياسة بلده على أن يترك كثيرا، لم أعد ذلك الحشايشي المتسكع الذي شجعته
الحرام وأولاد الزنا الذين المدرسة في عزّ الشباب وأن يتبع أولاد السوق وأولاد
أتذكّر أن أمي كانت، كلما رأتني ..لا عمل لهم سوى العربدة والكسل والنوم الثقيل
العصر، إلا يوم الأحد اليوم الذي أستيقظ من نومي خملان، كل يوم بعد صلاة
تسأل: من أين تلك الرائحة؟ وتجيب على كنت أرافق الدابة وحمارته إلى البئر،

أبي، مضيفة: حاشى السامعين. تفاجأ أهل سؤالها: من ذلك الكنيف، مشيرة إلى
قال بعضهم. رأيت أبي في المنام يقول لي الحومة جميعهم، سبحان مبدل الأحوال
أهل الويل والوسخ والمسخ، وبرّم وجه :متمتما لما رآني في هيئتي الجديدة
أحرّم على أبي البقاء في المنزل وبصق بصقة حمراء على الأرض. رأيتني
حياته متسكعا من باب بار إلى باب الحرام، ذهب ولم يعد، قالوا عنه أنه قضى
.كان لا يقبل إلا الصدقات العينية بار آخر يطلب صدقة السكارى والمعربدين،

التغييرات والترميمات استقرت في حومتنا الجديدة، حومة صدّام. أدخلت بعض
أرغمت أختي المطلقة مرّتين .على الأشياء التي كان ولابد من تغييرها وترميمها
الحجاب راجيا المولى أن ـــ تلك التي كنت أقبلّها وهي صغيرة ـــ على ارتداء
بالمرمر المزور تفاديا يغفر ذنوبها، هدّمت جوانب قبر أمي التي بنتها أختي
والفيديو والتليفزيون التي للشرك.. بدأت بتغيير المنكر في بيتي، كسّرت الراديو
وبعدها انتقلت إلى تغييره قولا اشترتها أختي من سوق الكونطرابندو أثناء غيبتي،
.وفعلا في حومة صدّام كما جاءت به التعليمات

* * *

الباطيو، تغيرت الأشياء ولّت أيام باطيو بينطو، بنيت عمارات عديدة مكان
وجاء أناس آخرين. مات وتغيرت المدينة، واختلط الحابل بالنابل، وذهب أناس
وبني له ضريح في جدي بعدما أن عمّر طويلا وعمّر صفية بالبنين والبنات،
الشرفاء، بعدما أن أعالي الجبل، وكتبت سيرته وأصبحت له هو الآخر شجرة
أمي.. أخذت لي كان مقطوعا من شجرة، ومات جدّتي وتلتها أختها وتبعتهم
مثل ولأختي المطلقة سكنا في حومة صدّام لأنه أرخص وأجدى بنا، صرت
حاضرا الملايين من المنسيين، المهمشين، أصبحنا منسيين إلى درجة أنني كنت
يذكرني في جميع الأحياء في نفس الوقت ولا أحد يراني. إلا الأعمى.. الذي كان
:بين فينة وأخرى

.ـــ أنت راقد تنتظر ساعتك، وعندما يصل اليوم المعلوم، عندها ستستيقظ

الذي سألتحق فيه بحبيبتي انتظرت بفارغ الصبر ذلك اليوم المشهود، ذلك اليوم
:أردد في أعماقي بحبيباتي الأبديات. أنتظر وأنا الأبدية. بحبيبتي؟

فيرى محاسن وجهه فوجها وترى محاسنها به بعيان
حمر الخدود ثغورهن لآلئ سود العيون فواتر الأجفان
والبرق يبدو حين يبسم ثغرها فيضيء سقف القصر بالجدران
ولقد روينا أن برقا ساطعا يبدو فيسأل عنه من بجنان
فيقال هذا ضوء ثغر ضاحك في الجنة العليا كما تريان

:..وأردد وأردد
أقدامها من فضة قد ركبت من فوقها ساقان ملتفان
والساق مثل العاج ملموم يرى مخ العظام وراءه بعيان
والريح مسك الجسوم نواعم واللون كالياقوت والمرجان
وكلامها يسبي العقول بنغمة زادت على الأوتار والعيدان

شرحها لي.. أصبحت فتح شيخي الأعمى بصري.. فهمت حقائق الأمور كما وتجدهن ينتظرنك على استعداد للسفر.. سفر لن يدوم أقل من هنيهة.. رمشة عين لقد اشتقت ..في مضجعك.. أي شيء ألذ وأحلى وأغلى من هذا الذي ينتظرني :إليكن، تنتابني رعشة ونشوة نعيميتين بل أكثر فردوسيتين وأردد

واضرب لهم مثلا بصب غاب عن محبوبه في شاسع البلدان
والشوق يزعجه إليه وما له بلقائه سبب من الإمكان
وافى إليه بعد طول مغيبه عنه وصار الوصل ذا إمكان

سأرحل وسآخذ معي من حطب ما هي إلا ساعات معدودة وتبدأ الحياة من جديد، ويبدأ عرسي الأبدي.. جهنم ما تيسر.. سأتلاشى وتجمع الحور أطرافي وأتهيأ :وأردد

وإذا بدت في حلة من لبسها وتمايلت كتمايل النشوان
تهتز كالغصن الرطيب وحمله ورد وتفاح على رمان

...وأردد وأردد
كالبدر ليلة تتمة قد حُفّ في غسق الدجى بكواكب الميزان

فلسانه وفؤاده والطرف في دهش وإعجاب وفي سبحان

*   *   *

صهيب.. كان الجو هذا اليوم ركبنا سيارة مرسيدس فخمة.. اكتراها الفقيه أبو
وأطلت علينا عتمة لم نعهدها غائما أكثر من اللازم، سحابة سوداء كست المدينة،
الراديو: نشرة أخبار الظهيرة، من قبل، طلب أبو صهيب من السائق أن يطلق
الشهيد: (جاءنا من مصدر موثوق إليكم التفاصيل: مومسات يترحمن على الرئيس
شهيد سابق بعد أن خرب أن أكثر من عشرة ألف مومس ترحمت على رئيس
شهر هرب خلالها حزب مازال قائما بيوتهن بمغامرته التي استمرت أكثر من
المنوية في شارع أكثر من أربعين ألف سادن من مكة كانوا يفرغون حيواناتهم
لأثرياء من الخليج مو... (انقطعت الموجة) في العاصمة المملوك في معظمه
أكثر من شارع مو... وأصدقاء للرئيس الشهيد وأولاده الذين يقومون الآن ببناء
انقطعت الموجة) وشاطئ) ...(انقطعت الموجة) في الع... (انقطعت الموجة) بعما
أما المدخل الرئيسي العق... (انقطعت الموجة أيضا). توقفت سيارة المرسيدس
الوداع الأخير وكنا قد للبناية.. أشار لي أبو صهيب بالنزول بعدما أن ودّعني
الآخر الفاتحة، ليس له أي دخل قرأنا قبلها الفاتحة، وقرأ معنا سائق التاكسي هو
السيارة المرسيدس وأسرعت بالعملية. أخذت حقيبتي وشهّدت ثلاثا ونزلت من
.خطاي في اتجاه باب المبنى الرئيسي

.ــ ومن الذي أمرك بتنفيذ العملية؟ سأل القاضي

...ــ الفــ

.ــ اسكت. صرخت شامة

.ــ قل. قال الصوت السلطوي بحدة

...ــ الجــ

.ــ قلت لك سدّ فمك. صرخت شامة

:قاطعته بصوت هستيري، أنا شامة بنت لطيفة بنت الفحام بنت الفقيه الدوغري
العملية ولا ــ لا، ليس أولائك الذين من كان سينطق بأسمائهم هم مدّبري
ليسوا غيرهم.. كلهم بيادق، عملاء يساهمون ويساعدون ويدبرون ولكنهم

!بالآمرين. إن الذي أمره بتنفيذ العملية هو ذلك الأعمى

*   *   *

على أبي الفقيه الدوغري حكموا على السيمو بالإعدام رميا بالرصاص، وحكموا
من صلبه، رفضني المعروف بابن صهيب بالسجن المؤبد، أبي هذا الذي أنا
بالشبهات (أصبح ورفض أمي وطلّقها وطلّقني في نفس الوقت بحكم أننا عاهرات
ذلك، حفظت الوأد سيكولوجيا)، عشت في حضن أم من غير أب، ولا أندم على
بينطو. منها عن ظهر قلب كل كبيرة وصغيرة عاشها سكان حومتها بباطيو
الحصول شهورا بعد طلاقها، طلبت أمي من خوسي ولد السيكي أن يساعدها في
على شغل وكان قد بدأ يشتغل كمشرف ومسؤول على دخول وخروج بواخر
العاصمة، طرانسميديطيرانيا بميناء المدينة، أسابيع قليلة بعد ذلك انتقلنا إلى شركة
وقد استطاع خوسي أن يحصل لأمي على منصب خدّامة في سفارة إسبانيا،
.وكذلك في بيت السفير، ومن ثمّ انقطعت أخبارها وأخباري معها

.لم يسأل أبي عنا أبدا، لأننا كنا ممن ذكرهم حديث المعراج
الزواج، إن أبي يفضل الحور. بدأ بحوريات أرضيات. أرغم جدّي، أمي من
الذي كان وهي في نفس سنّ صفية تقريبا أو تزيد عليه قليلا، من الفقيه الدوغري
أمي، كان عابس يكبرها بكثير، جدّي هذا جاء إلى الحياة مغتاظا، كانت تقول لي
ببصقته الوجه طول الوقت، يقضي وقته يسب وينعل(*) كل الناس منتهيا
أحست أنها الشهيرة: تفو..، كان أبو السيمو يسميه السي تفو، بعد مدة من زواجها
سنة حامل، وكان أبي في تلك الفترة قد التحق بجماعة الأعمى. كان عمري
عندما بدأت أمي تعامل أبي بطريقة جعلته يغيظ منها ومن تصرّفاتها. نصحه
الأعمى أن يطلّقها طلقة لا رجعة فيها، بحكم أننا من أهل حديث المعراج. طلّق
أبي أمي أربع مرّات ثلاث مرات أمي ومرّة أنا. أخذ أبي له بعد ذلك بفترة
قصيرة أربع حوريات أرضيات، وأسدل عليهن ستارا أسود حتى ينفرد بهن مثلما
.سينفرد بحورياته هناك

.أمّا الأعمى فلم تعثر عليه السلطات

عنه إلى غريب أمر الأعمى هذا! كل مرّة يفلت من يدها. إنها لا زالت تبحث ولكن لا أحد اليوم. والأغرب أنه متواجد في نفس الوقت في كل أرجاء المعمورة !يراه

* * *

مرّة، وجدته شاحبا شاردا نظرته أسبوعا قبل أن يعدم السيمو، ذهبت لزيارته آخر عليه، ردّ السلام بأدب واحترام. تمعن غائبة لا يبالي بالذي يدور حوله. سلّمت بكلمة واحدة. غادر مكانه بهدوء أدار في وجهي وقتا طويلا من دون أن ينبس :وجهه جهة الحائط وسألني

ــ كيف حال حورية؟

ــ تقصد أمي. قلت

.طأطأ رأسه

.ــ إنها تسلم عليك

طويلا، وأنا ــ قولي لحورية، لقد حان الوقت للرجوع من حيث أتينا. لقد عمّرنا يا ليتنا ما أكلنا ..تعبت.. يجب أن نعود على هيئتنا الأولى، هيئة ما قبل الذنوب !من تلك الشجرة. كل هذا التعب من أجل الجنس

المفقوص والجملة ما قبل كانت هذه آخر كلمة نطق بها السيمو ولد السالك الفحّام قبل أن أضع المخطوطة في الأخيرة التي كتبتها أنا شامة بنت لطيفة بنت .ظرف لأرسلها إلى مدير دار النشر

لحقة: أطلب أن تصفحوا عني إن كنت قد تسربت كالزئبق داخل سيرة ليست .بسيرتي وأحدثت فوضى داخل السرد

عبد اللطيف الإدريسي

.بيزوس المحروسة، ديسمبر ٢٠٠٨